المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور

للدكتور: رجاء عيد نقد وتقييم

The Philosophy of Rhetoric between Technology and Development:
A Critical Evaluation of Dr. Rajaa Eid's Perspective

بقلم الباحث

ثنوى علي محمّد العامريّ

محاضر، تخصص البلاغة والنّقد، كلية الآداب والإدارة،
قسم اللغة العربية، جامعة بيشة، المملكة العربيّة السّعوديّة

الجزء الرابع (إصدار يونيو ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور للدكتور: رجاء عيد نقد وتقييم

ثنوى علي محمّد العامريّ

قسم البلاغة والنّقد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والإدارة، جامعة بيشة، المملكة العربيّة السّعوديّة.

البريد الإلكتروني: Th92009@hotmail.com

الملخص

هدفت الدراسة تحديد رؤية الدكتور رجاء عيد في كتابه، ومحاولة مناقشتها، للوصول إلى تقييم منصف على ما عرضه. واستخدمت الدراسة المنهج الوصفي؛ وجائت خطة الدراسة في: مقدّمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، موزَّعة كالتَّالي: المقــدّمة فيها بيان أهداف البحث، ومشكلته، وأسئلته، والمنهج المتّبع، وخطّة البحث. والتَّمهيد وجاء بعنوان: الغاية من التجديد في البلاغة العربيَّة. المبحث الأول: فلسفة البلاغة بين منطلقات الكاتب في البحث البلاغيّ ومفهوم البلاغة.وجاء في ثلاثة مطالب: والمبحث الثاني : رؤية جديدة في مقررات قديمة. وجاء في ثلاثة مطالب. والمبحث الثالث: تقييم آراء الدكتور رجاء عيد بين منطلقاته، وتطبيقه لفكرته، وجاء في مطلبين. وخلصت الدراسة إلى بعض النتائج، منها:

- إنَّ جهود البلاغيين القدامى جهود عظيمة، في خلق منهج بلاغي مميِّز، يتلاءم مع معطيات عصرهم.
- محاولة الدكتور رجاء عيد في التجديد في البلاغة قامت على قراءة القديم، لكن رفضه لأغلب ما قيل، وردَّه ونعته بالجفاف والجمود، جعل قراءته للقديم فيها شيء من التحيُّز للفكر المعاصر.
- انبهار الدكتور رجاء عيد بالفكرة الشموليَّة، جعله يركِّز عليها، وكأنها

المرتكز الرئيس الذي يدور عليه تذوق وتحليل البلاغيين.

- رؤية الدكتور رجاء عيد تتفق مع نظرة أغلب المجددين المعاصرين معه.
- إنَّ أغلب ما ذهب إليه الدكتور رجاء عيد كان مركّزًا على قصور البلاغة وضعفها عن الإحاطة بمتطلبات العصر.
- فكرة التقنين الذي يرفضها الكاتب، نراه يتخَّط فيها ويطبِّقها بشكل واضح ويريد أن يجعلها معياريَّة – أيضًا – في معالجة النص الشعري.

الكلمات المفتاحية: فلسفة البلاغة، التقنية والتطور، د. رجاء عيد، النقد والتقييم.

The Philosophy of Rhetoric between Technology and Development: A Critical Evaluation of Dr. Rajaa Eid's Perspective

Thanwa Ali Mohammad Al-Amri

Department of Rhetoric and Criticism, College of Arts and Administration, Arabic Language Department, Bisha University, Kingdom of Saudi Arabia

Email: Th92009@hotmail.com

Abstract

The aim of this study is to identify Dr. Rajaa Eid's perspective in his book and critically discuss it in order to provide a fair evaluation of his presented ideas. The study utilizes a descriptive methodology, and the research plan consists of an introduction, preface, three chapters, and a conclusion, structured as follows: Introduction, which presents the research objectives, problem statement, research questions, and the adopted methodology and research plan. The preface is titled "The Purpose of Renewal in Arabic Rhetoric." Chapter one examines the philosophy of rhetoric, the author's perspectives on rhetorical research, and the concept of rhetoric, which is divided into three subtopics. Chapter two discusses a new perspective on old curricula, consisting of three subtopics. Chapter three evaluates Dr. Rajaa Eid's opinions based on his perspectives and application of his ideas, presented in two subtopics. The study concludes with several findings, including the recognition of the significant contributions of ancient rhetoricians in creating a distinctive rhetorical methodology that aligns with their era's conditions. It highlights Dr. Rajaa Eid's attempt to renew rhetoric by drawing from ancient works while rejecting most of the established ideas, criticizing them as dry and stagnant, leading to a biased interpretation of ancient texts in favor of contemporary thought. Furthermore, the study observes Dr. Rajaa Eid's fascination with the comprehensive idea, which becomes the central focus of his examination and analysis of rhetoricians. His perspective aligns with the views of many contemporary reformers. Dr. Rajaa Eid's arguments primarily emphasize the shortcomings and limitations of rhetoric in addressing the requirements of the modern age. Additionally, the study notes the author's clear application of and emphasis on the concept of technification, which he rejects while simultaneously using it as a standard for analyzing poetic texts.

Philosophy of Rhetoric, Technology and Development, Dr. Rajaa Eid, Criticism and Evaluation.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين الّذي خلق الإنسان من طين، وكرَّمه بالعقل، وعلَّمه البيان، وجعل نبيّه الكريم أفصح العرب، بيد أنّه من قريش صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سلك طريقهم، وسار على دربهم إلى يوم الدّين. أمَّا بعد:

في العصر الحديث ومع تكامل النظرة للعلوم سواء القديمة أو الغربيَّة، ومع تطور نظرة الأدباء المعاصرين للقديم، جعلهم ينظرون إلى التراث القديم، ومحاولة إحيائه أو تجديده على أساس المعاصرة، ومن تلك العلوم علم البلاغة الذي مرَّ بمراحل مختلفة عبر تطوره التَّاريخي، بدءًا من البحث عن إعجاز القرآن، وحتى ضبط الفنون الشعريَّة والنثريَّة، والبحث في أسرار الإبداع وتأليف الخطاب.

هذا التطور كان دافعا للدكتور رجاء عيد ليعرض كتابه الموسوم بـ" فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور" إذ بدأ البحث فيه عن تلك الفلسفة التي حصلت في البلاغة، عبر استقراء جهود البلاغيون القدامى، والبحث عن التطور الذي أوصلها إلى التقنين الصارم الذي أدَّى بها إلى الجمود.

فالبحث في فلسفة البلاغة يعني البحث في العلم الذي اختلفت فيه الآراء، وتعددت فيه المواقف، وهذا ليس قصرًا على أحد، ومن أجل ذلك كان الهدف من هذا البحث هو البحث، والكشف عن أوجه التجديد عند الدكتور رجاء عيد، وموقفه من القديم.

مشكلة البحث تتشكَّل في ما هو المنطلق الذي انطلق منه الدكتور رجاء عيد في تجديده للبلاغة، وهل حقَّقه؟ ويدرج تحته مجموعة من الأسئلة:

١- ما أوجه القصور والضعف في بلاغتنا القديمة التي تدعو إلى التجديد؟

٢- كيف كانت مناقشة الدكتور رجاء عيد مع العلماء القدامى؟ وكيف تعامل مع آرائهم؟

٣- كيف عرض الدكتور رجاء عيد للبلاغة في كتابه؟

٤- ما أكثر الأساليب البلاغيَّة التي ركَّز عليها في كتابه؟

٥- ما هو الجديد الذي أضافه على البلاغة العربية، وهل اختلف مع نظرة معاصريه في التجديد؟

منهج البحث: ستقوم هذه الدراسة – بإذن الله – على المنهج الوصفي؛ بغية تحديد رؤية الدكتور رجاء عيد في كتابه، ومحاولة مناقشتها، للوصول إلى تقييم منصف على ما عرضه.

خطَّة البحث:

تأتي دراسة موضوع: "فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، للدكتور/ رجاء عيد، نقد وتقييم " في: مقدّمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، موزَّعة كالتَّالي:

المقدّمة فيها بيان أهداف البحث، ومشكلته، وأسئلته، والمنهج المتّبع، وخطّة البحث.

والتَّمهيد وجاء بعنوان: الغاية من التجديد في البلاغة العربيَّة.

المبحث الأول: فلسفة البلاغة بين منطلقات الكاتب في البحث البلاغيّ ومفهوم البلاغة. وجاء في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: منطلقات الكاتب وأهدافه.

المطلب الثاني: مفهوم البلاغة بين الاضطراب والتداخل.

المطلب الثالث: البحث البلاغي وصلته بالمنطق والفلسفة.

والمبحث الثاني : رؤية جديدة في مقررات قديمة. وجاء في ثلاثة مطالب:

المطلب الأوَّل: اللفظ والمعنى وعلاقتهما بالسياق.

المطلب الثاني: مباحث علم المعاني.

المطلب الثالث: مباحث علم البيان.

والمبحث الثالث: تقييم آراء الدكتور رجاء عيد بين منطلقاته، وتطبيقه لفكرته، وجاء في مطلبين:

المطلب الأول: تقييم منطلقات الكاتب في فلسفته.

المطلب الثاني: تقييم تطبيق فكرة الكاتب في فلسفته.

التمهيد

الغاية من التجديد في البلاغة العربيَّة:

التجديد في العلم أو محاولة إضافة جديد إلى علم سابق، ليس أمرًا جديدًا، أو محتكرا على علم دون آخر، وإنما التجديد هو تعبير واضح على جديَّة صاحبه؛ لأنَّه يسعى نحو إرادة التغيير مرهونة بالتقليد الغربيّ أو إلف القديم وإعادة قراءته، وإمعان النظر فيه، بشكل يُظهر المغيَّب فيه، وتسليط الضوء عليه.

وهذا الأمر نراه في بلاغتنا العربيَّة إذ حاول الكثير من العلماء تجديدها، ففي القديم نرى نهوض البلاغة، والسعي إلى وضع حدود لها، بداية من ابن قتيبة (٢٧٦هـ) حتَّى عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ) حيث اكتملت عليه يديه المباحث البلاغيَّة، واستقرَّت، وبلغت مرحلة النضج والاكتمال على امتداد تاريخها الطويل، وبعدها اتجهت اتجاهًا تعليميًّا قادها إلى الجمود – كما يقول المجددون– وأوَّل الكتب مفتاح العلوم للسكَّاكي (٦٢٦هـ) والذي كان هدفه الأساسيّ " تزويد طالب علوم الأدب بالمعيار الذي يحفظ لسانه من الخطأ في استخدام اللغة، والذي يضبط العمليَّة النقديَّة بالعقل والحجَّة."[١] ومن بعده أُلِّف تلخيص المفتاح– للقزويني (٦٨٢) وتتالت بعده الشروحات الأمر الذي جعل "معظم الشرَّاح في هذه الحقبة كانوا معلِّمين يجلسون إلى طلابهم يشرحون لهم علوم اللغة العربية، ولم تكن طريقتهم في التدريس يومذاك إلا قراءة المتن والتعليق عليه، ومن هنا كثرت الشروح والحواشي والتعليقات والتقريرات، وثقلت المؤلفات البلاغيَّة ما أوجبه الدرس الشفوي ومواجهة المتعلِّم من علوم فلسفيَّة وكلاميَّة وأصوليَّة وفقهيَّة وتاريخيَّة، ولو من باب المباهاة بالعلم أو مجاراة اللاحق للسابق."[٢]

(١) القاعدة والذوق في بلاغة السكاكي، الدكتور/ يوسف رزقه، مجلَّة الجامعة الإسلاميَّة، المجلَّد السابع، العدد الأول، يناير–١٩٩٩م، صـ١٧٤.

(٢) القاعدة والذوق في بلاغة السكاكي، الدكتور/ يوسف رزقه، صـ١٩٤.

وعلى إثر ذلك ظهرت الدعوات إلى تجديد البلاغة، وكل دعوة تحمل في طيَّاتها هدفاً وغاية، تريد أن تصل إليها، منطلقة من فهمهم للمعنى الغربي لمصطلح البلاغة والذي يتردد بين ثلاثة مفاهيم كبرى وهي(١):

١- المفهوم الأرسطي الذي يُخصِّصها لمجال الإقناع وآليَّاته، حيث تشتغل على النص الخطابي في المقامات الثلاثة المعروفة: (المشاورة والمشاجرة والمفاضلة).

٢- المفهوم الأدبي الذي يجعلها بحثًا في صور الأسلوب، وهذا ما دعا إليه الدكتور: سعد مصلوح؛ حيث قال:"الأسلوبيات اللسانيَّة لا تموت، وأنَّها غدت مكوِّنًا فعَّالًا في تحليل بنية الخطاب وأجروميَّة النص"(٢).

٣- المفهوم النسقي الذي يسعى لجعل البلاغة علمًا أعلى يشمل التخييل والحجاج معًا، أي يستوعب المفهومين الأوّلين من خلال المنطقة التي يتقاطعان فيها موسَّعًا هذه المنطقة أقصى ما يمكنه من التوسيع.

وكان من أبرز غايات المجددين في الدرس البلاغي(٣):

-التجديد في دراسة علوم البلاغة وفي الربط بينها تحت اسم الصورة البلاغيَّة أو الصورة الفنيَّة أو الصورة الأدبية أو الصورة الجمالية.

-التجديد في درس تاريخ البلاغة من حيث ظواهرها وصلة هذه الظواهر بالأعلام والتيار البلاغي، وفي دراسة القضايا البلاغيَّة من خلال العصور أو من خلال الأعلام.

-التجديد في دراسة علوم العربيّة وصلتها بالعلوم الحديثة مثل علوم الإنسان والنفس والتربية ونظرية المعرفة.

---

(١) يُنظر: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، للدكتور/ محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب- الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠١٢م، صـ١١-١٢.

(٢) في البلاغة العربيَّة والأسلوبيَّات اللسانية، آفاق جديدة، الدكتور/ سعد عبدالعزيز مصلوح، جامعة الكويت، مجلس النشر العملي،الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، صـ١٣.

(٣) قراءة في دعوات تجديد البلاغة، الدكتور/ الشارف لطروش، مجلَّة حوليات التراث، العدد١٦، ٢٠١٦م، صـ١٠٠.

-التجديد في دراسة المصطلحات وتدرجها، وقضايا البلاغة من خلال عصورها.

-السعي إلى تخليص البلاغة من تلك الزيادات والحواشي ومن الفلسفة والمنطق وغيرها من العلوم، والاقتصار على المستوى البلاغي والفنيّ فحسب.

ونحن لسنا بصدد الخلاف مع تلك الغايات، المهم أن يكون المقصد الرئيس من تلك الغاية " أن نبذل في دراسة علومنا القدر الذي بذله كل جيل من أجيال علمائنا الذين سبقونا بإحسان مع زيادة في المجهود، وزيادة في التحرير، والتدقيق، وزيادة في إتقان الوسائل، وتجويد العمل، تتعادل هذه الزيادة مع التقدم السريع الذي تحققه الأجيال في سباقها المحموم نحو التقدم والسبق والغلبة".[1]

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي، الدكتور/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠١٦م، صـ٦١.

المبحث الأول: فلسفة البلاغة بين منطلقات الكاتب في البحث البلاغيّ ومفهوم البلاغة.

المطلب الأول: منطلقات الكاتب وأهدافه:

الذي يقرأ مقدِّمة الكاتب لكتابه، والهدف منه، يشعر بشيء من الانقباض والقلق حول تلك المدلولات والكلمات التي تحط من قدر الذين يتناولون التراث ويتدارسونه، على الرغم من محاولته شحذ الهمم في البحث عن تصور جديد لمفهوم البلاغة، وعدم مسايرة التراث في كل ما يقال، فأغلبه حشو لابدَّ من التخلص منه، كما يقول: "ولكن كلُّ ما أقصده بكلِّ إخلاص وتواضع أن نحاول معًا تنقية ما في الإناء فلا نبقي فيه إلا ما ينفع النَّاس فيمكث في أرضهم، ثمَّ ننفي هذا الزبد الذي لا بدَّ أن يذهب جفاء."(١) وأكَّد على أنَّ دراسته صدمة للقارئ " حين تجادل في مسلَّمات اكتسبت هذه الصفة من طول التكرار، ومن دوران ملول ينقلها به جيل إلى جيل. ولكن لا بأس فسوف نتحمَّل ما يقال بكل صبر فذلك أفضل من أن ننضم إلى قافلة الاسترخاء حول ما قيل، والاكتفاء بترديد ما ابتذل."(٢)

ثمَّ قام بتوضيح المنطلقات الأساسيَّة التي من خلالها سوف يخرج مفهوم جديد للبلاغة، وهي:

-يسعى الكاتب إلى طرح عدد من المسلَّمات البلاغيَّة للنقاش، فهو يعيد النظر في كثير من المباحث البلاغيَّة التي طرحها القدماء إيمانًا منه بأنَّ كثيرًا مما طرحه القدماء بحاجة إلى إعادة نقاش، وهو في الوقت ذاته لا ينفي القيمة عن تلك الآراء، لكنه ينبِّه القارئ على أنَّ ما تركه القدماء من ميراث بلاغيّ، طالما تعرَّض للشرح والتكرار وإعادة الطرح، وهو ما أكسبه ضربًا من القدامة التي أعمت عيون الناقدين عن مناقشته وبيان وجه القيمة فيه.

-لا حظ الكاتب أنَّ كثيرا من المسلَّمات البلاغية كانت في الأساس من وضع آخرين لم يكونوا مختصِّين في البلاغة.

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، الدكتور/ رجاء عيد، منشأة المعارف- الاسكندرية، الطبعة الثانية، د/ت، صـ٩.

(٢) المرجع نفسه، صـ٧.

-أخذ الكاتب على البلاغيين انتزاع الشواهد البلاغية من سياق النص الأدبي؛ بغية التدليل على مصطلح بلاغي كان كلٌّ واحد منهم حريصًا على الاختلاف عن الآخر في نحته وصوغه.

-إنها إذن محاولة لإعادة قراءة التراث البلاغي؛ لمحاولة إقامة حوار بين الموروث البلاغي، والنظر المعاصر دون الاكتفاء بإعادة اجترار كتابات القدماء وترديد آرائهم.

-يسعى الكاتب من خلالها إلى تقديم تصوُّر للبلاغة كما يفرضها علينا فهمنا المعاصر بما فيه من تيارات ثقافية، وهو ما يعني ضرورة النظر إلى البلاغة وفق ذوقنا وليس ذوق القدماء.

والحقُّ فإنَّ الدكتور رجاء عيد قد أصاب في نظرته إلى البناء البلاغيّ الذي تعاون في تشكيله كثيرون من خارج نطاق التخصص البلاغي وهو أمر مقرر؛ فقد شارك اللغويون والمتكلمون والمفسرون في تشييد المنجز البلاغي.

فهو من خلال ذلك يسعى إلى تقديم قراءة معاصرة للبلاغة وفي الوقت نفسه يسعى إلى تخليص البلاغة من أفكار كثيرة علقت بها، وتسببت في تغيير مسار البحث البلاغي ، وهو محقَّق تمامًا في دعوته إلى ضرورة النظر إلى الأساليب البلاغيَّة وفقًا لذوقنا المعاصر.

المطلب الثاني: مفهوم البلاغة بين الاضطراب والتداخل:

يعرض الدكتور رجاء عيد كيف تعددت الأوساط التي صاغت موروثنا البلاغي؛ فقد نشأت البلاغة في أوساط غير أهلها اللغويين والمتكلمين والكتاب والمفسرين وغيره، وهو ما نتج عنه غموض مفهوم البلاغة الذي انحدر إلينا عن القدماء مصبوغًا في جمل مبسترة لا تكفي لوضوح أبعاده. وجعل السبب وراء ذلك هو قضيَّة الإعجاز الذي عن طريقه" تعددت المفهومات البلاغيَّة وتشابكت الفروع مع الأصول."[1]

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، الدكتور: رجاء عيد، صـ١١.

حيث غاب مفهوم بلاغي متكامل في ركام الملاحظات التي نقلها البلاغيون عن الثقافات المتعددة كالهندية والفارسية مثلا؛ مما تركه البلاغيون من محاولات تعريفية لم تكن سوى شرائط عامة للأداء البلاغي، تتسم بالعموم والإبهام، ولم تكن كذلك سوى بعض الملاحظات المنطقية التي استقاها المتكلمون من خطابة أرسطو؛ فصارت الخطابة خطاباً حجاجيًا اقناعيًا عقلانيًا في المقام الأول، ويكون الأداء الفن والطابع الجمالي في الدرجة الثانية. فالمتكلمون أثارهم الذي أصاب النجاح في صبغ البلاغة بمنهجها الذي وورثناه، أمَّا من يطلق عليهم أنهم أصحاب اتجاه فني فلم يصيبوا نجاح سواهم، فقد كان المتكلمون بما لهم من براعة فكريَّة وبما يملكون من قدرة حجاجيَّة أثر ملحوظ في صلابة تحليلاتهم الذهنيَّة.(١)

فحديثه عن المتكلمين أمر صحيح، ولكن هناك أمران في غاية الغرابة:

أوَّلًا: يتحدَّث عن المتكلمين ودورهم الواضح في نهوض البلاغة، وفي الوقت نفسه ينقد الجاحظ وهو أساس المتكلمين في عصر، كونه مؤسس البيان العربيّ.

ثانيًا: يتحدَّث الدكتور عن مفهوم البلاغة، وتعريفه بجمل قصيرة من القدماء، وينعت ذلك بقوله:" وإذا تتبعت ما ورثناه فلن تجد سوى مثل هذه المبسترات البخيلة مثل أنها" ما قرب طرفاه وبعد منتهاه" ومثل" التقرب من البغية ودلالة قليل على كثير" ومثل" البلوغ إلى المعنى ولم يطل سفر الكلام" ومثل " دنو المأخذ والقصد إلى الحجَّة".(٢)

وعلى ذلك يقول سارت البلاغة في طريق ضيّق هو درب الجملة وما يتصل بها من إسناد دون الاتجاه إلى دراسة النص دراسة أسلوبية متكاملة في ضوء الظروف الاجتماعية والنفسية التي تتغير في كل عصر، ومن ثمَّ فإنَّ تقنين البلاغة بقوانين محددة في كل العصور أمر خارج المعقول. ثم يردُّ على نفسه ويقول:"

(١) ينظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، الدكتور/ رجاء عيد، صـ١١.

(٢) المرجع نفسه، صـ١٢.

فالأسلوب سمة شخصيَّة لصاحبه ولكل منهج في البناء اللغوي وهو يختلف على حسب الموقف والسياق والعاطفة. ولا جدال بأنَّ لكل عصر سماته الأسلوبيَّة الخاصَّة تبعًا للنمط الفكري والجو الثقافي والظروف الاجتماعيَّة بل والطبائع النفسيَّة بل وقد تكون البيئة أثراً في تمايز الأداء الفني."[١]

وعلى ذلك يمكننا أن " ننظر إلى العمل الفنيّ على أساس مجموعه ونحلِّل منهج صاحبه فيه، ومدى ملاءمته لفحواه مراعين تآزر العناصر المختلفة التي تشكِّل في تشكيلها العام أداءً جيِّدًا تنشط فيه الجملة مع أختها واللفظة مع سياقها. والصياغة مع مضمونها."[٢] وهو في ذلك يؤكد سعي الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في النظر للعمل الأدبي بشكله ومضمونه معًا، ولكنه في الوقت نفسه يتَّهمه بأنَّه لم يعمل بها حيث قال: " واعلم أنَّ من الكلام ما أنت ترى المزيَّة في نظمه كالأجزاء من الطبع تتلاحق، وينضمّ بعضها إلى بعض، فأنت لا تكبر شأن صاحبه ولا تقضي له بالحذق حتَّى تستوفي القطعة، وتأتي على عدَّة أبيات."[٣] وهذا الأمر غير صحيح فعبد القاهر الجرجاني هذه من أساسيات نظريته، إذ جعلها في ثلاثة دعائم:

ترتيب المعاني في النفس بموجب إعمال العقل والفكر، مراعاة السياق والموقع في التأليف، وتوخِّي معاني النحو. فهو لم يجعلها حكرًا على بيت أو جملة واحدة، وإنما قد يكون ذلك في القصيدة كاملة[٤].

وجعل تشكَّل المصطلح وحدوده في تصور القدماء من خلال ثلاثة عناصر ، هي:

١- الإيجاز.

٢- الجمال الفنيّ.

٣- إيصال المعنى.

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، الدكتور/ رجاء عيد، صـ ١٨.

(٢) المرجع نفسه، صـ١٨-١٩.

(٣) المرجع نفسه، صـ٢٣.

(٤) يُنظر: نظرية النظم عند الشيخ عبدالقاهر الجرجاني، الدكتورة/ نجاح بنت أحمد الظهار، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، صـ٣٢-٤٩.

وأخيرًا يعلِّق على أنه دارت محاولات البلاغيين على التفريق بين الفصاحة والبلاغة أو التوحيد بينهما، وكان جهدًا في غير طائل؛ إذ الأولى من ذلك النظر إلى العمل الفني في شكله ومضمونه دون الاقتصار حول البيت المفرد أو الجملة المنزوعة عن سياقها. وفي هذا الكثير من التَّعنُّت وكأنُّه الخطيئة التي ارتكبها القدماء في أنَّهم اعتمدوا على البيت المفرد والجملة، وقال بجملة أمين الخولي: " ولعلَّه من الأوفق أن تكون كلمة " البلاغة" وصفًا للفظ والمعنى، وعلينا أن نقتصر على كلمة " البلاغة" وصفًا لجمال الكلمة والكلام."(١)

وأرى من وجهة نظري أنَّ الدكتور رجاء عيد هنا يخلط بين عدَّة أمور:

الأوَّل: مفهوم البلاغة كما طرحه البلاغيون.

الثاني: مفهوم البلاغة كما ورد في كتب البيان العام كالبيان والتبيين مثلًا؛ لأن البلاغة بوصفه مفهومًا يدل على علم معياريّ معيَّن يتناول الأساليب الفنيَّة، يجب أن يُلتمس في الدراسات البلاغية المحضة.

الثالث: مفهوم الفصاحة والبلاغة وإن دخل في كثير من الاختلاف بين العلماء، فالمهم على يد من استقرّ، وتمَّ الاتفاق على أنَّه لا فرق بينهما على يد من اكتمل عنده أساس البلاغة حيث قال في كل من الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة:" ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها، مما يُفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة، ويُنسب فيه الفضل والمزيَّة إليه دون المعنى، غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثمَّ تبرجها في صورة هي أبهى وأزين وآنق وأعجبُ وأحقُّ بأن تستولي على هوى النفس، وتنال الحظ الوافر من ميل القلوب، وأولى بأن تُطلِق لسان الحامد، وتطيل رَغْم الحاسد، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غيرُ أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصحُّ لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخصُّ به، وأكشف عنه وأتمُّ له، وأحرى بأن يكسبه نبلًا، ويظهر فيه مزيَّة."(٢)

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٢٢.

(٢) دلائل الإعجاز، الشيخ الإمام/ عبدالقاهر بين عبدالرحمن الجرجاني النحوي، قرأه وعلق عليه/ محمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، مطبعة المدني- مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م-١٤١٣هـ، صـ ٤٣.

أمَّا إشارات الجاحظ في سياقات كتابه البيان والتبيين، وتعدد مفهوم البلاغة ونقله عن اليونان والهنود والفرس، فهي إشارة إلى فكرة البلاغة لا بوصفها علمًا معياريًّا له حدود وأصول، وإنما هي إشارات إلى حسن الأسلوب وروعة البيان وعلو نمط الخطاب بوجه عام.

وهنا يكون الكاتب وقع في خطأ – من وجهة نظري– حيث انتقد من أصله البلاغة التي تشكَّلت من خلال مقولات غير البلاغيين؛ إذ بنى نقده لمفهوم البلاغة على إسهام أدبي عام لا ينتمي إلى صلب البلاغة.

المطلب الثالث: البحث البلاغي وصلته بالمنطق والفلسفة:

وبعد استعراض الكاتب لتاريخ التأليف البلاغي حتى عصر الشروح والتلخيصات يخلص إلى ثلاثة اتجاهات في تاريخ البحث البلاغي[1]. وقد كان عقلانيًّا منطقيًا في هذا التقسيم؛ إذ أخذ المؤلفات التي كانت تتجَّه نحو المنطق، وكان أغلب التشكيك فيها، وأكَّد خلوّ بعض المؤلفات عن الفلسفة بشكل كامل، وفيه من درج بين الأمرين.

١– الاتجاه الفلسفي، الذي :" كان محاولة تطبيق للفكر الفلسفي على العقيدة والعلوم الدينيَّة والبلاغيَّة، وهو انعكاس لروح غير عربي سيطر على هذا الاتجاه، وتجلَّت فيه النزعة إلى عدم اهتمام بالنصوص العربيَّة نتيجة لتلك التحولات التي راحت تتَّجه نحو النزعات القوميَّة الإقليميَّة، ولم يعد للعرب وآدابهم اهتمام إلا بقدر ما يساعد على خدمة القرآن والحديث."

وجعل في هذه القائمة من المصنَّفات ابن المعتزّ في كتابه (البديع)، فهو قد يكون السبب في اتجاه معاصريه ومن بعده، للذهاب للتقسيمات والتفريعات، ومنهم قدامة بن جعفر في مؤلفه: (نقد الشعر)، واسحاق بن وهب في مؤلفه: (كتاب البرهان في وجوه البيان)، ولكن في بعض المؤلفات نجده يقول: السبب في ذلك هو تقسيمات وتفريعات علم البديع عند كل من: ابن طباطبا في (عيار الشعر) ، والآمدي في موازنته، والجرجاني في وساطته، والرماني في (النكت في إعجاز

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٣٦.

القرآن)، وأبو هلال العسكري في (الصناعتين)، وعلَّل بأنَّ تلك التقسيمات كانت بداية التعمُّل والتمحُّل في خلق ألوان بديعيَّة لا تستحقّ التقدير مما فتح السبيل إلى تفتيت العمل الفني، حتَّى بعض التعليلات التي يتّجه إليها المؤلفون جافَّة وباردة، هو من أثر سيطرة منطق أرسطو الذي لم ينج منه أكثر البلاغيين![١]

٢- الاتجاه غير الفلسفي حيث كان" محاولة لإحياء مذهب أهل السنَّة، ومن ثمَّ نما الاهتمام بالأثر والرواية وبرز فيه نفور من الفلسفة والفلاسفة وزاد الاهتمام بالعلوم العربيَّة، وفيه ازدهرت علوم اللغة والبلاغة والنحو والشعر والأدب".

وهذه القائمة تبدأ من القرن الخامس ؛ فقد عملت جاهدة على الاهتمام بعلم البلاغة، حتى إننا نجد فيه شيئاً من التداخل بين علوم البلاغة، وفنونها، بداية من القاضي الباقلاني في (إعجاز القرآن) والشريف الرضيّ في مؤلفه:(تلخيص البيان في مجازات القرآن) والقاضي عبدالجبار الأسدآبادي في كتابه: (المغني في أبواب التوحيد والعدل) [٢] وخصص الجزء السادس عشر فيه للكلام عن الإعجاز القرآني .وابن رشيق القيرواني في: (العمدة في صناعة الشعر ونقده)، وصولاً إلى عبدالقاهر الجرجاني صاحب: (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة)، والزمخشري في تفسيره (الكشَّاف) فعلى أيديهما ازدهرت الدراسات البلاغيَّة " فأولهما قدَّم دراسة فاحصة تتناول الملاحظ البلاغيَّة المتخلفة التي تتّصل بالإعجاز القرآني، أو التي تنفصل عنه مضيفًا إلى ذلك نظره في كتب اللغويين السابقين عليه بل والنحويين أيضًا. والثاني أكمل ما بدأه الأوَّل، إذ طبق ما قدَّمه " عبدالقاهر" على كتاب الله، ولم يكتف بذلك التطبيق، بل عمل على استكمال المباحث التابعة.[٣] فهذا الاتجاه يتَّسم أصحابه:" بالذوق الفنيّ والحِسِّ الأدبي."[٤]

---

(١) يُنظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٢٨-٢٩.

(٢) حقَّقه أمين الخولي ، وطبع بدار الكتب المصرية سنة ١٩٦٠هـ .

(٣) يُنظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٣٢-٣٤.

(٤) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٤٣.

٣- الاتجاه المتكامل، وهو " يجمع بين الاتجاهين السابقين ونستطيع القول بأنَّ القرنين السابع والثامن يمثِّلان ما برز من اتجاهات سابقة من حيث التأثر بأصحاب هذه المناهج، وتداخلها أحيانًا، والإفادة من مختلف هذه الاتجاهات مع عدم منهجيَّة محدَّدة أحيانًا أخرى".

وهذه تبدأ من التلخيصات والشروح التي فيها شيء من التعقيد والاجترار، وأولها الفخر الرازي (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) ، وثانيها السكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) ثمَّ الذبول الذي شمل جميع المؤلفات التي جاءت بعدها، فكلٌّ واحد مهما له منهجيَّة مختلفة عن الآخر والذي أسماه بعصر البديعيَّات.

كما قلنا بأنَّ رؤية الدكتور رجاء عيد كانت منصفة بعض الشيء مقارنة مع القائلين بالأثر الأرسطي على مؤلفات البيان العربي بشكل عام، كما نجد عند طه حسين، إذ كان موقفه من البيان العربي من أجل التقليل من إنتاجيَّة العقل العربيّ، وجعله مقلِّداً لمن سبقه، ويؤكِّد هذا الدكتور: أمجد الطَّرابلسي في مقدمة بحث الدكتوراه للدكتور عبَّاس أرحيلة، والتي عنوانها: (الأثر الأرسطيّ في النَّقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري) فقال ملخِّصًا الهدف الذي يعمل الأستاذ طه حسين وأعوانه عليه، وهو: " هناك من يُقنعون بالمقارنة والكشف عن مناحي التَّشابه والتَّناسب، دون أن يجهدوا أنفسهم في تتبّع الأدلَّة القاطعة بوجود التَّأثُّر والتَّأثير؛ لأنَّ غاية هؤلاء في الدرجة الأولى الكشف عن مظاهر تقارب الأفكار الإنسانية، تمهيدًا للوصول إلى الأدب العالمي الذي يعتقدون بوجوده أو على الأقل يتمنون تحقّقه."(١)

فالغاية من هذا التشكيك في التاريخ العربي هو:" جعل الإنسان الأوربي محورًا للتاريخ، وتغييب أصالة كلّ فكر خارج المركزية الأوربية. ومن ثمَّ أصبح التشكيك في مدى إسهام الحضارة العربية الإسلامية في إنتاج المعرفة، ومدى أصالتها في هذا الإنتاج، إشكالًا حادًا."(٢)

---

(١) الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، عبَّاس أرحيلة، مطبعة النَّجاح الجديدة- الدار البيضاء، ١٩٩٩م، صـ١١.

(٢) المرجع السابق. صـ٣٤.

حيث بدأ القول بالتأثير اليوناني من بداية القرن الثاني والثالث الهجريين، وذلك لأنهما أخطر محطة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، نتيجة انصهار الأجناس، وتداخل اللغات، وامتزاج الثقافات، إضافة إلى بداية تشكل حضاري جديد، وحدوث نهضة علمية كبرى، تشكلت من خلالها ملامح الثقافة العربية الإسلامية وأسهمت في بلورتها عقول كبيرة وأمزجة مختلفة، وتميزت هذه النهضة بأهم ميزة وهي: تأسيس علوم العربية، واستنباط قواعدها، وتحديد مقوماتها، وكان إلى جانب ذلك جمع للمأثورات الدينية، وتتبع الأحاديث النبوية، تدوينا وفهماً وتأصيلا.

كما تميز القرن الثاني والثالث الهجريين ببداية التأمل في الفكر الإسلامي في ضوء علوم الأوائل، وقد أبدى علماء الكلام مرونة فكرية في تأصيل الهوية الإسلامية، ونجد عندهم استعداداً فطرياً، وانصرافاً إلى المعرفة، عن طريق الترجمة والتعايش بين الشعوب.(١)

وإذا كان التأثر واضحًا في المرحلة المتأخرة في البلاغة العربية والتي يقال إنَّها مرحلة الجمود، فالتأثير ليس معناه أخذ العلوم وتقليدها وإضمارها في بلاغتنا العربيَّة، وإنما التأثر كان في حدود (المنهج- الاستدلال- التقسيم).

فالذي يريد أن يقرأ جهود من سبقه، سواء يريد إضافة شيء جديد، أو البحث عن المغيَّب فيها، عليه أن ينطلق أوَّلا من ركيزة أساسيَّة مفادها " الاعتقاد بشمولية الفكر الإنساني، ومن أنه ليس في التأثر، موضوع الدراسة، ما ينال من كرامة المتأثِّر أو الآخذ، أو ما يزيد في قيمة المعطي أو المؤثِّر؛ لأنَّ كل المجتمعات الإنسانية مهما تكن مستوياتها تأخذ وتعطي، وإن اختلفت نسب هذا الأخذ وهذا العطاء في مراحل حياتها المتتابعة، وكما يحدث التأثر والتأثير بين الأدباء المتعاصرين أو المتعاقبين في نطاق الأدب المحلي أو القومي، كذلك يحدث التأثر والتأثير بين مجتمع وآخر، بين أدب وآخر، بين فكر أمة وفكر أمة أخرى."(٢)

---

(١) يُنظر: الغارة الهيلينيَّة والبيان العربي، الدكتور: عبَّاس أرحيلة، كنوز المعرفة، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م- ١٤٣٦هـ، صـ١١٧-١١٩.

(٢) الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثّامن الهجري، عبَّاس أرحيلة، صـ١١.

المبحث الثاني: رؤية جديدة في مقررات قديمة.

في هذا المبحث أكَّد الدكتور رجاء عيد أنَّ الهدف والغاية من استعراضه للمباحث البلاغيَّة هو:" أن نأخذ من القديم ما نراه مفيدًا لحياتنا الأدبيَّة ناقدين ما نرى طرحه حتى يكون البحث البلاغي صورة متكاملة تتناول العمل الفني تناولًا متكاملًا بدلًا من تفتيت هذه الصورة."[1]

فتكاد تكون فكرة الكتاب الأساسية- كما ذكرنا- تتلخص في رفض النظرة الجزئية للأساليب الفنيَّة؛ والتعويل على نظرة كليَّة للعمل الفني تراعي فيها الظروف الاجتماعية والنفسية التي تختلف من عصر إلى آخر، ولذا فإنَّ تقنين البلاغة بقوانين صارمة يجب أن تتحكم في كل العصور أمر يخالف العقل. والكاتب محقّ في هذا المبدأ لكن العيب في ذلك لا يرجع إلى البلاغيين القدماء أنفسهم؛ فقد وضعوا قواعدهم في سياق عصرهم، ولم يلزموا من جاء بعدهم بالوقوف عند حدود إسهامهم.

المطلب الأوَّل: اللفظ والمعنى وعلاقتهما بالسياق.

بدأ الدكتور رجاء عيد باللفظة فهي المكوِّن الأساسيّ في الجملة، اشترط البلاغيون لفصاحة اللفظ عددا من الشروط مثل: عدم تنافر الحروف، عدم مخالفة القياس اللغوي، ألَّا يكون اللفظ غير مألوف الاستخدام (عدم الغرابة) ، الوضوح، وقلَّة حروفه.

والكاتب يناقش هذه الشروط بأنها من قبيل التعمُّل والتكليف؛ لأنَّ قبح اللفظ وحسنه أمران نابعان من السياق والبيئة اللغوية؛ فاشتراط الوضوح يعني تبسيط العمل الفني، وتسطيحه خاصة في الشعر الذي هو أبعد ما يكون عن المباشرة، ولذلك يرفض تقسيم الألفاظ وحدها، وإنما يجب النظر إلى العمل الفني بشكل متكامل، ولذلك يرفض مذهب ابن سنان في الألفاظ؛ إذ جعل تباعد مخارج الحروف من شرائط الفصاحة، ومشبِّها ذلك بحسن الصورة عن اختلاف الألوان، " في أنه

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٤٣.

كلما كانت شديدة التباين كانت للناظر أحسن."[١]والكاتب يرفض التشبيه نظرًا لاختلاف المجال بين المشبَّه والمشبَّه به.

أمَّا كثرة حروف اللفظ فليس في حد ذاته سبباً لقبح اللَّفظ؛ لأنَّ القبح أو الحسن ينبعان من الموقف الخاص بهما، وينبعان كذلك من سياق الاستعمال. ويأخذ الكاتب على البلاغيين أنهم يكيلون بمكيالين؛ فهم يجعلون اللفظ الذي كثرت حروفه منافيًا للفصاحة، ولكنهم إذا وجدوا الأمر نفسه في القرآن شهدوا بعكس ذلك. وخلاصة رأيه في الألفاظ:

أنَّ القيمة الفنيَّة للألفاظ يصورها الموقف أو مكانها في السياق، ومن العاطفة التي تمنحها خصوصيتها. ويدلِّل على ذلك بأنَّ بعض الألفاظ تحقَّقت فيها شروط البلاغيين، ورغم ذلك لم تكن موفقَّة لعيب في صياغتها، فما يعاب في عصر ليس شرطًا أن يعاب في آخر، وما يستحسن في عصر ليس شرطاً أن يُستحسن في عصر آخر؛ لأنَّ مرجع الأمر إلى الذوق الذي – بلا شك– يختلف من عصر لآخر.

ونستطيع القول بأنَّ الكاتب محقٌّ في قوله: إنَّ القيمة الفنيَّة للألفاظ تنبع من مكانها في داخل السياق بغض النظر عن شروط اللفظ من وجهة نظر البلاغيين، وهو كلام مقبول بمقاييس عصرنا لا عصر القدماء. أمَّا عن الاستشهاد بآيات الله فالقرآن الكريم القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة، وهو أحسن الحديث، وهو في أعلى درجة من الفصاحة، وأرفع رتبة في البلاغة، وفصاحة القرآن وجه من وجوه إعجازه، ولفصاحته العالية، وبلاغته الرفيعة، وبلا شكّ سيشهد البلاغيون بفصاحته، حتَّى وإنْ خرج عن معاييرهم، ويقول في ذلك أبو هلال العسكري " وقد علمنا أنَّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلَّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصَّه الله به من حسن التأليف وبراعة التَّركيب وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف."[٢]

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٤٦.

(٢) كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تصنيف أبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهيل العسكريّ، تحقيق: علي محمَّد البجاوي ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيَّة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م، صـ١.

فالبلاغيون نقدوا الألفاظ التي تخالف ذوقهم، أو كان غرضهم في الفصاحة " أن يعبِّروا بالتمكّن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبُوِّ عن سوء التلاؤم، وأنَّ الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها، وأنَّ السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقًا للتالية في مؤدَّاها."(١)

أمَّا عن استخدام الكلمة ورفض الأخرى، أو تحديدها بزمن معيَّن، فالبلاغيون هم أهل اللغة، لذلك استخدموا الشائع عندهم من الألفاظ، ورفضوا غير الشائع، وهذا الأمر يتناسب مع زمانهم؛ إذ كان الإتقان في استخدام اللغة وتطبيق دقائقها هو غاية البلاغة، مثل كلمة (الأخْدَع) التي ذكر الجرجاني بأنَّها قد تكون في موضع مقبولة، والآخر مكروهة، ففي قول البحتري:

وَإِنِّي وَإِنْ بَلَّغْتَنِي شَرَفَ الغِنَى وَأَعْتَقْتَ مِنْ رِقِّ المَطَامِعِ أَخْدَعِي

وقول أبي تمّام:

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكْ

إذ رأى بأن الحسن الذي اتَّصفت به لفظة (أخدع) في البيت الأول يرجع إلى معاني النحو وتلاؤمها مع أخواتها ، لا إلى الألفاظ في حُسْنِ الاتِّساق والترتيب، أما في البيت الثاني فإن اللفظة أصبحت ثقيلة على النفس، وذلك لعدم ملاءمتها للسياق الذي وظِّفت فيه، ولو كان الأمر هو الألفاظ لكانتْ حسنة في الحالين، ويفصل الحديث في قضية الفصاحة والبلاغة مؤكداً فيه أنهما نظم الكلام بحسب المعاني.(٢)

وهذا الأمر فيه رد على الدكتور رجاء عيد، فقد تكون اللفظة حسنة من جهتين: اتقان الإعراب، وتلاؤم الكلمة مع أخواتها في السياق. فهو يقول أن هذه الآراء على الرغم من إخلاص أصحابها إلا أنَّها" قد فتَّتت المبحث البلاغي، حين أغرقته في متاهات عديدة عن اللفظ وشرائطه. إنَّ اللفظ – مهما تكن وضعيَّته– محدود الكينونة، له ماديَّته المستقرَّة فيه، ومهمَّة الفنَّان – شاعرًا أو ناثرًا– أن

(١) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، صـ٤٥.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، صـ٤٧.

يطلق قواه الحبيسة في إطار حروفه لتتحوَّل إلى ديناميَّة تستمد حرارتها وحركتها من خلال السياق العام ".[١]

والغريب في ذلك أنَّه يلحقها بكلام فيه شيء من التناقض إذ جعل كلامه مقيَّداً بـ(قد) التي تفيد التحقيق، الذي فيه شيء من التوقُّع:" قد تكون الكلمة غريبة وحشيَّة يرفضها البلاغيون، وهذه قضية أخرى تدخل في فهم المعجم التاريخي لتطور الألفاظ – ولكن قد تدبُّ فيها حياة جديدة بوصلها بسياقها العام، وذلك بالطبع يتوقَّف على قدرة الفنَّان وطاقته الخلَّاقة."[٢] فهو بهذا لا يضيف جديدًا على ما قاله السابقون سوى تركيزه على السياق العام؛ إذ كان تركيزهم على الكلام والمتكلِّم فيهما، " فكلما كان الكلام بخصائص تراكيبه أكثر شمولًا واستيعابًا للفكر والشعور كان أعلى، وواضح أن كثرة الخصوصيَّات التي هي من عوامل ارتفاع شأن الكلام والحكم عليه بالجودة هي من الخصوصيَّات التي وراءها رصيد من الأفكار والمعاني. أمَّا بلاغة المتكلِّم فهي مقدرته أو موهبته التي يستطيع بها أن يعبِّر تعبيرًا بليغًا، أي يبلغ مواطن الحس والشعور من النفس المتلقيَّة."[٣]

ثمَّ تحدَّث عن عبدالقاهر الجرجاني ورأيه في هذه القضيَّة حيث قدَّم مرَّة اللفظ، ومرَّة المعنى، "فهو على الرغم من ذلك فإنَّ له ملاحظات جيِّدة إلا أنها تأتي مبتورة كأنها خاطر يلمع ثمَّ يتوه وسط مناوشات جزئية."[٤]

ثم انطلق على الحديث عن قضيَّة اللفظ والمعنى وقال بأنَّ الجدال الذي دار حول هذه الثنائيَّة ما هو إلا " حرثًا في بحر، وحصاد الهشيم."[٥] وعذره في ذلك أنه ينظر إلى العمل الفني في وحدة متكاملة. [٦]

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٥٦- ٥٧.

(٢) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور،صـ٥٨.

(٣) خصائص التراكيب، دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، الدكتور/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، د/ت، صـ٤١.

(٤) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٥٩.

(٥) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٥٩.

(٦) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٥٩.

ويبدو من ذلك بأنَّ الدكتور رجاء عيد من الذين خُيِّل إليهم بأنَّ عبدالقاهر الجرجاني يتحامل مرَّة للفظ وأخرى للمعنى، وإنما مقصده من القضيّة هو تفنيدًا لآراء من سبقوه، وتدليل على مفهوم الصورة عنده بالنظم، ولا نظم في الكلم والترتيب حتَّى يعلق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، حيث يقول: "ثمَّ اعلم أن ليست المزيَّة بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعْرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثمَّ بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض."(١)

المطلب الثاني: مباحث علم المعاني:

انطلق الدكتور رجاء عيد في استعراضه لمباحث علم المعاني من الجملة والعبارة، وكيف يكون له أثر جماليّ وبلاغي؛ لأنَّه يحاول بذلك أن يتتبَّع السبيل الذي يدفع إلى الانتقال من الجزئيات إلى الكليَّات.(٢)

واستند في ذلك على أقوال عبدالقاهر الجرجاني الذي درس قيمة اللفظ في إطار فكرة النظم القائمة على المواضعات النحويَّة، ومن ثمَّ فإنَّ المباحث البلاغيَّة عن الجملة تدور حول تكوينها النحوي؛ لأنَّ استقامة العبارة نحويًّا يمنحها خصائص فنية من خلال السياق. وهذا ما استقرَّ عليه تعريف علم المعاني الذي أخذه من السكاكي حيث قال:"تَتبُّع خواص تركيب الكلام في الإفادة، وما يتّصل بها في الاستحسان وغيره، ليتحرَّز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال."(٣)

فهو يرفض فكرة أن يكون مقتضى الحال مرتبطاً بعلم المعاني فقط، فهو مرتبط بعلم البيان أيضًا، ويردُّ على قوله بردٍ على ما يقول وهو:" وكما قلنا إنَّ عملية الفصل بين علم المعاني وعلم البيان عملية تنظيميَّة فقط، وإلَّا فكلاهما لُحمةُ صاحبه. فكلاهما بحث في الجملة من حيث قيمتها الجماليَّة وقيمتها الدلاليَّة والتأثيريَّة أيضًا."(٤)

---

(١) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، صـ٨٧.
(٢) يُنظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٦٢.
(٣) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٦٢-٦٣.
(٤) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٦٣.

ثمَّ يعرض الدكتور رجاء عيد لتصوُّر البلاغيين للإسناد، وقضيَّة الخبر وجعله صادقًا أو كاذبًا أو غير صادق ولا كاذب، فهو جدل ذهنيّ قائم على فروض عقليَّة بعيدة عن فكرة البلاغة؛ لأنَّ الشعر في جوهره ليس مجرَّد إفادة تخبر عن مخاطب ما بقدر ما هو تنفيس تلقائي لمشاعر نفسيَّة، فالشاعر حينما يقول:

وحبيبٌ كان دنيا أملي حبُّهُ المحرابُ والكعبةُ بيتُه
من مشى يومًا على الوردِ له فطريقي كان شوكًا ومشيته
من سقى يومًا بماء ظمأً فأنا من قدحِ العمر سقيته
خفق القلب له مختلجًا خفقةُ المصباح إذ ينضبُ زيتُه

فيعلِّق بأنَّه لم يكن الشاعر يقصد إفادة القارئ بمضمون الخبر، وإنما كان يعبِّر عن مشاعر ذاتية بشكل عفويّ. فمن الواضح أنَّ الكاتب يبني فكرته على نقد التصورات البلاغية في ضوء صلة الأسلوب البلاغي بفكرة تكامل البناء اللغوي، وهو ما يشكِّل جوهر فكرته في الكتاب.

وقد أصاب في ملاحظته الطابع الذهني الجدلي الذي طبع ملاحظات البلاغيين حول الخبر وأضربه خاصَّة في أضرب الخبر التي استخرجوها من الشعر التي يتجاهل البلاغيون كثيرًا من قيمه الفنيَّة في سبيل التأكيد على بعض تصوراتهم العقديَّة.

وأصاب – أيضًا– في ملاحظته أنَّ البلاغيين بالغوا في وضع أحكام جزئيَّة تتَّصل ببعض النصوص، وهي لا تصلح أن تطبَّق على غيرها من النصوص، وهو ما سمَّاه التقنين الذي إن صلح في بعض النماذج لا يصلح في كلِّها. ولكن عليه أن لا يعمِّم الموضوع عند البلاغيين جميعهم؛ لأنَّ لهم غاية في الخبر؛ " لأنه قد يجري الكلام على خلاف مقتضى الظاهر من حال المخاطب، أي أن المتكلم لا يعتد بهذا الواقع في صياغته، وإنما يجري على أمور اعتبارية تنزيليّة يلحظها هو

ويعتبرها مقامات يصوغ عبارته على مقتضاها، وذلك موطن دقيق، لا يهتدي إلى مواقعه الشريفة إلا ذكي النفس دقيق الحس واسع الخيال"[١].

وبعدها يعرض لقضيَّة التعريف والتنكير في طرفي الإسناد، فقد أشار الكاتب إلى أن البلاغيين أفاضوا في الحديث حول هذا الأمر دون الوصول إلى معيار عام يمكن تطبيقه في كل النصوص، فكل ما خرجوا به في هذا السياق أحكام جزئيَّة لا يصحُّ الأخذ بها في كل الحالات وفي كل النصوص.

فقد كانت لدى البلاغيين رغبة في التقنين لمسائل فنية بلاغية لا يمكن أن تدخل في إطار التقنين، وقد تناول البلاغيون صيغًا للجمل الاسمية تختلف من حيث تعريف الخبر وتنكيره، نحو:

زيد منطلق: خطاب لمن لا يعلم بوجود أي انطلاق من أي شخص.

زيد المنطلق: خطاب لمن يعلم بوجود انطلاق لكن لا يعرف من أي شخص وقع.

المنطلق زيد: خطاب يكون المعنى فيه على رؤية إنسان ينطلق بعيداً لكن صاحبك قال لك: المنطلق زيد.

وهذا الأمر يدخل في الدراسات النحويَّة؛ لأنَّ الدلالات المستعارة من التركيب اللغوي لا تفيد في القيمة البلاغيَّة وإنما تفيد في بيان أثر المعنى النحوي في الإفهام. وهذا الأمر غير فيه نوع من الإشكال فالتعريف والتنكير عند النحويين يرتكز على ثلاثة معايير لدلالته، وهي:" التعيين والشيوع، وعلم المخاطب، والإشارة لخارج."[٢] أمَّا البلاغيون فيربطونه بالسياق، ودلالته.

وعلى منواله يأتي التقديم والتأخير في الجملة؛ إذ يرفض الكاتب تعليلات البلاغيين للتقديم والتأخير؛ لأنها لا تستند إلى أي تعليل فني مقنع؛ ففي قول الشاعر:

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ العَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِي النَّدَى بِسَرِيعِ

(١) خصائص التراكيب، الدكتور/ محمد محمد أبو موسى، صـ٥١.

(٢) التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل، محمود أحمد نحلة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٩م، صـ٢١.

فقد قالوا بأنَّ تقديم الجار والمجرور (إلَى دَاعِي النَّدَى)كان للضرورة الشعرية، وهو ما يرفضه الكاتب الذي يرى أنَّ التقديم هنا كان ناتجًا عن إحساس بالمرارة النابعة عن قوله: يلطم وجهه؛ هو ما يدل على مفارقة بين داعي الندى ولطم وجه ابن العم، وهي صورة قائمة على التنفير.

وفي قوله تعالى: "خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ" (الحاقة- ٣٠-٣١)،

قال البلاغيون إن التقديم كان لرعاية الفاصلة، وهو ما يراه الكاتب تسطيحًا لفكرة البلاغة، وبدلًا من ذلك يرى أنَّ الأمر هنا ينطوي على بلاغة للتأثير على النفس من حيث سرعة بيان المصير السيئ الذي ينتظر المأخوذ[١]. فالتقديم والتأخير أمر يتَّصل بنفسية الأديب وحسِّه الشعوريّ، وقدرته الفنية على استغلال التركيب اللغوي للعبارة، وهذا حق، ولكن لا نلقي اللوم على تحليلات القدماء، فكل متلقٍّ لديه رؤية، تعبِّر عنه، وعن مدى قراءته الجيدة للنص.

ويأتي عند الأثر البلاغي للحذف، فيرفض فكرة حصر مواضع الحذف وتقنين مظاهره؛ لأنَّه أمر فنيّ ذوقي نستطيع أن ندركه من الموقف كاملاً، ولا يجب أن يخضع للتقعيد.

والبلاغيون في تصوراتهم للحذف يأتون بعدد من الأسباب التي إن صدقت على بعض المواضع لا يمكن أن تعمَّم على غيرها، فهم يرون أنَّ حذف المسند " يكون للاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر، أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من الفعل و اللفظ، يقصدون بالتخييل هنا أنَّ العقل سوف يتخيل هذا المحذوف"[٢]، ومن ذلك قول الشاعر:

قال لي كيف أنْتَ ؟ قُلتُ:عليلُ سَهرٌ دائمٌ وحزنٌ طويلُ.

الأصل: أنا عليل.

فيفسر الحذف بأنَّه ناتج عن إحساس الشاعر بالعلَّة، وقد تضخَّم حتى احتلَّ مساحة عريضة من ذاته، ومن ثمَّ أصبح ذكر ذاته لا قيمة لها؛ لأنها مستحقَّة

(١) ينظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٧٨.

(٢) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٨١.

تحت لفظ: عليل. وهذا – من وجهة نظري- تفسير نابع من رؤية معاصرة تُفلسف الخطاب الشعري وفق معارف نفسيَّة لا يمكن أن نطالب القدماء بالصدور عن مثلها.

وخلاصة رأي الكاتب بأنَّ البلاغيين كان يجب عليهم أن يكتفوا بالإشارة إلى أنَّ أحد طرفي الإسناد قد يحضر حاملًا معه الدلالة على وجود الآخر الذي لم يحضر، دون الدخول في تحديد أغراضه تتغير ولا تثبت؛ لأن الفن أشد رحابة من فكرة التقنين. وإنَّ ما يحاول البلاغيون جعله قوانين إنما هي طرائق تعبيرية كامنة في العرف اللغوي العربي.

وينطلق بعدها إلى محاولة توضيح التلاؤم بين الأسلوب والموقف، إذ يقول بأنَّه يدل مصطلح مقتضى الحال المناسبة بين الأسلوب والموقف الذي يستخدم فيه، وهو يدل على مراعاة البلاغيين لحال المخاطب لكنهم أهملوا حال المتكلم نفسه وموقفه تجاه الأشياء. ومن هنا كان مقتضى حال المخاطب محددًا الاختيار. وحال من ثلاثة أحوال للخطاب، وهي:

الإيجاز والإطناب، والمساواة.

أمَّا الإيجاز فهو يدل على قلَّة الألفاظ مع عدم الإخلال بالمعنى، ويدل الإطناب على ضروب من التفكر في الأداء أما المساواة فيقصدون بها إن اللفظ يكون على قدر المعنى، وهي مهمَّة مستحيلة في نظر الكاتب. وهذه المفاهيم يرفض الكاتب تطبيقها في الشعر لأنَ البيت يجب أن ينظر إليه في سياق القصيدة التي تخضع لمعايير معيَّنة، وحتَّى في النثر فإنَّ كل كاتب له أسلوب تتجلَّى صورته العامة من خلال بنائه الكلي الذي يتمكَّن من التأثير فينا.

وهذا كلَّه يشكِّل أساليب طبيعيَّة في نسقية اللغة فالبلاغيون يذكرون قول الشاعر:

سَقَتْنِيَ فِي لَيْلٍ شَبِيهٍ بِشَعْرِهَا شَبِيهَةَ خَدَّيْهَا بِغَيْرِ رَقِيب
فَمَا زِلْتُ فِي لَيْلَيْنِ: شَعْرٍ وظُلْمَةٍ وَشَمْسَيْنِ: مِنْ خَمْرٍ وَوَجْهِ حَبِيبِ

بوصفه مثالًا للإطناب. وقد قالوا بأن ّ البيت الأوَّل يكفي ذكره عن البيت الثاني. ولكن الكاتب يرى أنَّ البيتين يتآزران لأنَّ الدلالة الفنيَّة تتعدَّى حدود المنطق.

ويرفض الكاتب كون التكرار إطنابًا، وإنما هو إيقاع نفسي لأحاسيس الفقد، وكأنه لحن مأساوي يزيد تكراره الحنين ويولد الأسى، وهو بذلك يقصد الإشارة إلى قول الشاعر:

فيا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أولُ حُفْـــرَة من الأَرْض خَطَّت للسَّمَاحَةِ مَضْجَعُ

وَيَا قبر مَعْنٍ كَيفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وَقد كَانَ مِنْهُ الْبرُّ وَالْبَحْرُ مُتْرعًا.

والكاتب محق في نظرته تلك؛ لأنها تتعلَّق برؤية كاملة للبيت غير مجتزأة، ولكن فيما قال عن إهمال البلاغيين لحال المتكلّم، فهذا غير صحيح، فقد عقد عبدالقاهر الجرجاني فصلًا في دلائله بيَّن فيه مزايا النظم بحسب الموضع، وبحسب المعنى المراد، والغرض المقصود، وماذا عن قول ابن طباطبا حين قال:" فَوَاجِبٌ على صَانِعِ الشِّعرِ أنْ يَصنْعَهُ صَنْعَةً مُتْقَنَةً لَطِيفَةً مَقْبُولَةً مُسْتَحْسَنَةً مُجْتَلِبَةً لمحبَّةِ السَّامع لَهُ والنَّاظِر بِعَقْلِهِ إِلَيْهِ، مُسْتَدْعِيَة لعِشْق المُتَأمِّل فِي محاسِنِه والمُتَفَرِّس فِي بدائعه، فَيُحْسِنُهُ جِسْماً ويُحَقِّقُهُ رُوحاً؛ أَي: يُتْقِنُهُ لَفْظاً ويُبْدِعُهُ مَعْنَى، ويَجْتَنِبُ إخراجَهُ على ضِدِّ هَذِه الصِّفة فَيكْسوهَا قُبْحاً ويُبْرِزُهُ مَسْخاً؛ بل يُسَوِّي أعْضَاءهُ وزْناً، ويُعَدِّلُ أجزَاءه تأليفاً، ويُحَسِّنُ صُورَتَهُ إصَابةً، ويُكَثِّرُ رَوْنَقَهُ اختصاراً، ويُكَرِّمُ عُنْصُرَهُ صِدقاً، ويُفيدهُ القَبُول رقَّةً، ويُحَصِّنُهُ جَزالةً، ويُدْنيه سَلاسَةً، وينأى بِهِ إعجازاً ... ويعْلَمُ أنه نَتِيْجَةُ عَقْلِه، وثَمَرةُ لُبِّهِ، وصُورةُ علمِهِ، والحاكِمُ عَليهِ أَو لَهُ. "(١)

ثمَّ أعاد النظر في استعمالات الخبر والإنشاء من خلال الفرق الأسلوبيّ، إذ يذهب البلاغيون إلى أنَّ استعمال الجملة الاسميَّة يعطي زيادة تأكيد، أو اختصاص

(١) عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ ، تحقيق: محمد سلام زغلول، منشأ المعارف، الاسكندرية، الطبعة الثالثة، صـ١٢٦.

لفاعلها، فكل بلاغيّ كانت لديه وجهة يبرر فيها استعمال اللفظ، فإذا قلنا مثلاً : زيد قام ، تأكيدٌ من قولنا: قام زيد.

وهو ما يرفضه الكاتب؛ لأنّ إسناد القيام متصل بزيد سواء كان مقدمًا أو مؤخرًا إلا إذا قامت قرينة في السياق تؤكِّد قولهم.

أمَّا الإنشاء فالكاتب يرى أنه يدخل فيما بحثه في صلب الدراسات النحويَّة، وليست البلاغيَّة فهم يُفَرِّعُون من الإنشاء أغراضًا كالأمر والنهي والالتماس ، وهم بذلك يقضون على جاليَّة الشعر، فالإنشاء يفصل إلى التمني في قول الشاعر:

أَلا أَيُّها اللّيلُ الطّويلُ ألا انْجَلِ بِصُبْحٍ، وما الإصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

فالشاعر وفقًا لتصورات البلاغيين لم يأمر الليل؛ لأن الليل غير عاقل ، ولكنهم لم يتلفتوا إلى مافي الشعر من طوابع جماليَّة خاصَّة فـ" الليل قد تحوَّل في إطار عالم عقلاني وهبته المخيلة الشاعرة هذا الوجود المتشخِّص، والشاعر هنا منغرس بخياله في قلب الأشياء في حلولية كونية كاملة، فلم يعد هو في جانب العقلاء والليل في جانب غير العاقلين ولن تزيد البلاغة بلاغة القول بأنَّ فعل الأمر (انْجَلِ) يفيد التمني."[1]

فهو تحليل لا يخرج عن حدود التأويل؛ لأنَّه خاص برؤية الكاتب، ولا يمكن النظر إليه بوصفه قولًا عامًا يتفق حوله كل القرَّاء، وهو ما يدفعني إلى القول بأنَّ الكاتب وقع في العيب الذي عاب من أجله القدماء؛ إذ حاول تقنين تفسيره للشعر، وفرض التفسير بوصفه القول الفصل وهو ما يتعارض مع إنتاج أفق التلقي للشعر قديمًا وحديثًا.

وأخيرًا نجده يرفض قول البلاغيين بأنَّ الجمل الطلبية تصلح في مواضع، والجمل الخبرية تصلح في مواضع أخرى؛ لأنَّ الفصل بينهما يكشف عن مدى تمكن الشاعر من أدواته الفنيَّة؛ فتنوع الأسلوب من الخبر إلى الإنشاء أمر يتبع

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ١٢١.

الموقف الحواري وفقا لمشاعر المتكلم، ومن ثمَّ فهو أمر خارج عن حدود التقنين البلاغي أوجبته الصياغة.

وما قاله الكاتب في رفض التصورات البلاغيَّة للقدماء، أرى فيه نوع من المبالغة، وخصوصًا قوله بأنَّ الإنشاء أدخل في مباحث النحو منه في البلاغة ، ولعلَّ ما دفعه إلى ذلك هو حرص البلاغيين على الإفاضة في مناقشاتهم العقليَّة للأساليب البلاغية.

ثم يليه حديثه عن أسلوب القَصْر، إذ يشير الكاتب إلى أنَّ البلاغيين يستخدمون عددًا من الأدوات لقصر صفة على موصوف، أو مصوف على صفة، وهو أمر لا يتحقَّق بالفعل في الأمثلة التي يتمثلون بها، ومن ذلك حديثهم عن أدوات القصر أيضا، ومنه قولهم عن: إنَّما: أنها تفيد القصر لكونها تضمن النَّفْي والاستثناء، ولكن الكاتب يرى كل ذلك لجاجًا لا فائدة منه، فهي تفيد مجرَّد التأكيد لما بعدها ،وهو يستند في ذلك إلى أنَّ أمثلتهم التي يستشهدون بها لا تفيد قصرًا بقدر ما تفيد تأكيدًا.

ويذهب الكاتب إلى أنَّ دلالة القصر في تصور البلاغيين أصلًا غير واضحة؛ لأنها تخضع لاحتمالات الجملة وأثر السياق، ويضرب مثلا لذلك بقول الشاعر:

إنَّمَا الدُّنْيَا حُمَيْدٌ وأيَادِيْهِ الجِسَامُ
فإذا ولّى حُمَيْدٌ فعلى الدُّنْيَا السَّلامُ

فالبيتان رغم وجود أداة القصر لا يشيران إلَّا على التوكيد، والأمر نفسه قد ينحسب على باقي أدوات القصر فهي لا تفيد القصر الذي يزعمه البلاغيون.

وهذا أجده – أيضًا– مما بالغ فيه الكاتب، ونراه في حكمه بأنَّ دلالة أسلوب القصر غير واضحة في تصورات البلاغيين؛ لأنَّها تخضع لاحتمالات الجملة وأثر السياق، وإذا كانت دلالات القصر تتأثر بمقتضيات السياق فإنَّ ذلك لا يعني عدم وضوحها، وقد تجاهل الكاتب أنَّ دلالات القصر تتعدد وفقًا لطرائق القصر إذ" يدل الاستثناء و(إنَّما) على القصر وضعًا، بينما يدل التقديم على القصر بالمفهوم والفحوى، ثم النفي بلا عاطفة يمكن أن يجتمع مع (إنَّما) والتقديم دون النفي

والاستثناء." [١] واختلاف هذه الطرائق – بلا شك– اختلاف في الدلالات التي تتبع في اختلافها (مقاصد المتكلم مع اختلاف كل سياق من سياقات الكلام).

وبعدها ينطلق إلى الفصل والوصل في الجملة، إذ يرفض الكاتب قول البلاغيين بأنَّ معرفة الفصل والوصل من أسرار البلاغة التي لا يعرفها إلَّا الأعراب الخلَّص؛ لأنَّ مدار الأمر على قدرة الأديب على اختيار الطرائق الأسلوبيَّة التي تعبِّر عن مقاصده سواء كان ذلك بالفصل أو الوصل. حيث يقول:" فهذه مصادرة لقدرة الأديب في طرائق أسلوبه الفنيّة التي قد تتفوق في نمطها الفني الخاص بها على أماكن الوصل وأماكن الفصل، وهو إذ يمتاح من مشاعره الخاصّة أقدر على إدراك بنية أسلوبه الخاص به."[٢]

ومن ثمَّ يرفض الكاتب فكرة تقنين البلاغيين لمواضع وصل الجمل؛ لأنَّ ذلك يمثِّل حجرًا على فنيَّة الأسلوب. وعلى أساسه يرى أنَّ تفسيرات البلاغيين للشواهد الشعريَّة في ضوء فكرتهم عن الفصل والوصل تعدُّ تمحُّلًا وسوء فهم لمعنى الفن.

ومن منطلق الكاتب أقول: ربما تخلَّى الكاتب عن الحذر الواجب عندما أعلن رفضه لقول البلاغيين بأنَّ الفصل والوصل من أسرار البلاغة، وكذلك يرفض تقنين البلاغيين لمواضع وصل الجمل؛ لأنَّ في ذلك حجرًا على فنيَّة الأسلوب، وهو إن كان محقًا في رفض فكرة التقنين؛ فهو ليس محقًّا في رفضه مذهب البلاغيين في الفصل والوصل؛ لأنَّه يتَّفق مع تصوراتهم البلاغيَّة النابعة من السياق الفني الأدبي لعصرهم، وهي تصورات مستمدَّة من واقع الاستعمال اللغوي للعرب في العصور القديمة. ومن ثمَّ كان إدراك العرب لمواطن الفصل والوصل سليقةً وفطرةً " بمعنى أن الأسلوب الخاص الذي يقتضي الواو مثلًا أو تركها كان يجري في التعبير على نحو تلقائي؛ لأنَّه معبِّر عن وجدانهم وفكرهم."[٣]

---

(١) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيَّة، الدكتور/ صبَّاح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، صـ٢٤٣.

(٢) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ١٣٦.

(٣) أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنيَّة، صـ٩. (يوضح هذا المرجع لأنه استعمل لأول مرة وليس موجودا في مراجع البحث ولعله للدكتور صباح عبيد دراز)

وإذا كان الأمر على هذا النحو؛ فإنَّ الفصل والوصل يمثِّل إحدى لبنات البناء اللغوي الذي تشكَّل في الوعي العربي بعيدًا عن فكرة التقنين والتحديد الصارم الذي يرفضه الكاتب.

وبعد استعراضه لمباحث علم المعاني، ومناقشتها، وطرح رؤيته من خلالها؛ فإنَّه يعقد جذوراً جديدة فيها، وأوَّل تلك الجذور، هو: الامتزاج بين النحو والبلاغة، معلقًا على مقولة لابن الأثير حينما قال بأن النحوي والبلاغيّ" يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة. وصاحب البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة، وهي دلالة خاصَّة."(١)

فتبدو فكرة الامتزاج بين النحو والبلاغة واضحة، منذ كتابات سيبويه التي تأثر بها عبدالقاهر خاصَّة في مباحث التقديم والتأخير، ومكمن الضعف هنا أنَّ سيبويه طبّق فكرته عن التقديم والتأخير على مثال نحويّ مجرَّد، أما عبدالقاهر الجرجاني فقد طبَّق الفكرة ذاتها على نصٍ شعري دون مراعاة خصوصيَّة البناء الشعري. كذلك تأثر عبدالقاهر بأفكار سيبويه في الحذف وفي غيره من المباحث الأخرى، بما يدلُّ على أنَّ قوام علم المعاني مستمد من الوظيفة الأساسيَّة للنحو. ومنها يجد أنَّ عبدالقاهر الجرجاني قد أسرف في تلمُّس الأوجه النحويَّة حتى في حديثه عن التعبير في بعض الأحيان، وكذلك فعل ابن الأثير لكنه لم يبلغ في ذلك مبلغ عبدالقاهر.

ويذكر بأنَّ كل من اللغويين والبلاغيين (سيبويه- عبدالقاهر- ابن الأثير- السكاكي) كانت نزعتهم في معالجة البلاغة منطقيَّة لا تخفى على المتفحِّص في العلم، وهذا الأمر فيه مزيد من التناقض ففي الجزء الأوَّل من كتابه ينفي أن يكون ابن الأثير وعبدالقاهر الجرجاني من أصحاب المنطق، والآن يؤكِّد على تأثرهم من المنطق الذي أصاب النحويين ومنهم سيبويه! فقد قال:" لقد صار كالمسلمات ما تتابع عليه الدارسون من القول بأنَّ السكاكي انشغل بالمنطق والجدل وتجمدت البلاغة على يديه، ويهمنا هنا فقط أن نشير إلى أنَّ القضية

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ١٤٣.

قديمة والفارق أنَّ عبد القاهر الجرجاني كان حريصًا على إخفاء جانبه المنطقي بالبعد كلما أمكن من أن تشي استعمالات المنطق به."[١]

وخلاصة رأيه: أن نمو النشاط الفكري دفع اللغويين الأدباء إلى البصر بأساليب الكلام، وطرائق الحجاج، وهو ما نتج عنه اختلاط المباحث المنطقيَّة بالنحويَّة، وهو ما يُنسب باطلًا إلى البلاغة بواسطة ممن ليس من البلاغيين كالأصوليين والمتكلمين والمفسرين والنحويين، وكلهم مشغولون بالجدل عن النص، وما فيه من تقنيات حيث فرض القياس منطقه على البلاغيين بدءاً من عبدالقاهر الجرجاني، وحتى حازم القرطاجني الذي حلَّل الشعر على منطق القياس بما فيه من مقدمات وحدود وأسوار .

وثالثها هو: نسق الأداء وهو ما يسمى بـ(نظرية النظم)، والذي أثبت فيها الجرجاني عبر تحليلاته الذكيَّة قيمتها في نسق الأداء اللغوي، لكنَّه يتَّهم الجرجاني بكثير من الأمور في هذه القضيَّة نسميها بالظالمة، من المنطلق الأساسي له في هذه النظرية، وهو قضيَّة الإعجاز، التي تغيَّر من خلالها مبدأ الجرجاني – كما يقول الدكتور رجاء عيد– إذ كان يتبع نظرة الجاحظ في اللفظ والمعنى في الأسرار، وسرعان ما تغيَّر هدفه في الدلائل خدمة لمنطلقه وهو الدفاع عن قضيَّة الإعجاز، فيقول في ذلك" التنظير صحيح، والتطبيق متمحِّل فيه والزيادة المتوهمة لا تتسق مع مفهوم النظم ولا تخدمه."[٢]

فحديث الدكتور عن منطلق الجرجاني في دلائله صحيح، وكان عليه أن ينظر – أيضًا– في الغاية من تأليف الأسرار، فهما يتفقان في أن الجرجاني يبحث فيهما عن بلاغة الخطاب، ويختلفان في أن أسرار البلاغة يركز فيه عبد القاهر على الخطاب الشعري كهدف أساسي فيكون شغله الشاغل هو البحث في مكونات الخطاب الشعري المختلفة، مع التركيز على قمة هذه المكونات، وهو اللفظ وما يتعلق به من استعارة ، وتشبيه ، وكناية ، وكل ما هو ضمن عناصر الخطاب

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور،صـ١٥٦-١٥٧.

(٢) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ١٧٩.

الشعري، متخذاً من الشعر العباسي مادة أساسيَّة له يطبِّق عليها نظرية التخييل بمقوماتها المختلفة. إذن فمدخل الأسرار ونواته هي التخييل فهذا التخييل يجد مرجعيته في نظرية المحاكاة.

أما عن الدلائل فقد كان الهدف الأسمى منه هو إثبات إعجاز القرآن الكريم- كما ذكرنا- وقد اتخذ من بلاغة الخطاب الشعري ممراً وجسراً وقنطرةً لإثبات إعجاز القرآن. فعرض لبلاغة الخطاب الشعري أولاً، لأن اللغة كما نعلم هي سمة مشتركة بين القرآن والشعر، فإذا أردنا أن نثبت إعجاز القرآن لابد أن يمر الأمر عن طريق خاصية مشتركة بين الشعر والقرآن، وهي اللغة ولهذا نفهم سر إتيان عبد القاهر بأبيات من الشعر في الدلائل إلى جانب آيات من الذكر الحكيم، وكأن الجرجاني يريد أن يقول: أن التفاوت يقع في هذه الأبيات الشعرية فنقول هذا البيت جيد، وهذا أجود، وذلك أجود منه إلى أن نصل إلى قمة سقف الأداء الفني. وهو الإعجاز في القرآن الكريم.

فالتغيُّر في الآراء ليس عيبًا أو تقليلًا في الشخص، وإنما كل عالم لديه غاياته واتجاهاته وقناعاته التي هي مستعدة للتغيير والتطور.

المطلب الثالث: مباحث علم البيان:

تحدَّث في البداية عن التشبيه وصلته بالبناء الفني، وعاب على البلاغيين حرصهم على تحديد الصورة الفنيَّة، سواء كانت تشبيهًا أو غيره؛ لأنها وليدة الخيال الذي هو ضد التجديد أصلًا؛ فالبلاغيون يرون في الصورة التشبيهيَّة اختصارًا أو بيانًا أو مجازًا أو ذمًا أو ترهيبًا، ولكن ذلك كله لا يتحقّق في بعض شواهد التشبيه، كقول الشاعر:

وإذا النُّورُ نذيرٌ طالعٌ وإذا الفَجْرُ مُطِلٌ كالحَرِيق.

لأنَّ التشبيه هنا نابع من تجربة نفسيَّة، وعاطفيَّة خاصَّة بالشاعر تفيض بدلالات تضيق عند تصويرها حدود البلاغيين التي اهتمت بفكرة تغليب الجانب العقلي، والاهتمام بالوشي والتزيين. وهذا كلَّه " من المجادلات العقلية ومحاولة

الاتكاء على الذهن حتَّى يعتصر وجهًا مبسترًا لعلاقة منفكَّة لا تثير في الذهن أية مشاعر وجدانية."[١]

كما يعيب كذلك حرص البلاغيين على تحديد عناصر التشبيه، ووضوح طريقة عمله في النصوص الفنيَّة، وهو ما يكسر أجنحة التصوير التشبيهي، ويحط من قدره، فإنَّ الحرص على إرضاء العقل دفع البلاغيين إلى تجاهل ما يثيره التشبيه من انفعالات نفسيَّة تعلو فوق فكرة العقلانيَّة، فيتم على إثره تسطيح العمل الفنيّ. فهذا قول لا يطَّرد على موقف البلاغيين جميعًا؛ فقد أشار البلاغيون كذلك إلى بلاغة الشاعر، وحذقه حينما يقتنص" الأشباه والعلاقات بين الأمور المتباعدة."[٢]

وقد فطن البلاغيون إلى كثير من ذلك لكنهم كانوا يقتصدون في التعبير عن ذلك، ولا يكثرون من الكلام في تحليل الأمر، ومن ذلك قول الشاعر:

فَعَبَّ دِخَالاً جرعهُ متواترٌ كوقع السحابِ بالطراف الممددِ

فقد فطن ابن سنان الخفاجي إلى مقصود الشاعر من هذا التشبيه وهو إبراز المبالغة بقوله:" وهذا التشبيه جيّد؛ لأنه شبَّه صوت اللبن على عصب المريء من حلق الإنسان بصوت المطر على الخباء المصنوع من الأدم، وذلك من أصح التشبيه لأنَّ المريء من جنس الأدم، واللبن من جنس الماء فصورتاهما متشابهتان؛ لأنَّ السبب في اختلاف الأصوات تخالف الأجسام التي تحدث فيها والغرض في هذا التشبيه المبالغة."[٣]

وإشارة ابن سنان للتشبيه تحمل نظرًا دقيقًا لمغزى البيت[٤]، وهو نظر ذو طابع حسي مستمد من واقع النص، وبيئة الشاعر ، وهو ما يدركه البلاغيون القدماء ويقدرون الفن على ضوئه.

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٢٤٧.

(٢) التصوير البياني، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة،القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، صـ٣٢.

(٣) سر الفصاحة للأمير أبي محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، صـ٢٩٨.

(٤) التصوير البياني، الدكتور: محمد محمد أبو موسى، صـ٤١.

أما أنَّ نطالبهم – كما يذهب رجاء عيد– بأن يلاحظوا الأبعاد النفسية الكامنة وراء التشبيه فهو تحميل للأشياء فوق ما تحتمل.

ثمَّ يقول بأن نظر البلاغيين إلى التشبيه بوصفه يعتمد على الفطانة الذهنيَّة، كان سببًا لتحويل التشبيه إلى مجرد تسجيل للأشكال، وتفنن في الحيل اللفظيَّة، وهو ما ركَّز عليه البلاغيون غافلين عن سبب ذلك، وهو مكونات البناء اللغوي بشكل كامل.

فقيمة التشبيه ترجع إلى الموقف الذي يدلُّ عليه السياق، ويتَّفق عليه الموقف الشعوري المسيطر على الموقف التعبيري، ولذا لا يجب أن ننزع التشبيه من سياقه داخل العمل الفني، بل يجب النظر إليه في ضوء قدرة صاحبه على إقامة مضمار فني يشمل القصيدة كلها، ووفقًا لذلك ينقد الكاتب مستندًا إلى رؤية العقَّاد والمازني!!

فالعيب فيما قاله الكاتب هو تصريحه وطلبه البلاغيين النظر إلى التشبيه احتكامًا إلى مقاييس معاصرة تراعي فكرة البعد النفسي. فكيف يجب أن يراعي القدماء فكرة الاتصال النفسي التي لا يمكن أن تدرك إلا في إطار من النظر الكلي للنصوص؛ وقد كانت نظرة القدماء وفقًا لظروف تشكلها تتسم بالجزئية، وهو ما يناسب سياق عصرهم.

وبعدها ينطلق إلى الاستعارة التي يشير فيها الكاتب إلى قيام الاستعارة على فكرة نقل اللفظ من مجال معنويّ إلى آخر، ويأخذ على البلاغيين اتجاههم المذهب المنطقي الجدلي الفلسفي في تذوقهم لنماذج الاستعارة؛ إذ كان تركيزهم فيها على العلَّة والمعلول والقياس والمقيس عليه.

فلم ينظر البلاغيون للاستعارة بوصفها حالة تخلق عالما جديدًا، أو حالة تقمُّص وجداني فيها تذوب الفوارق بين المشبَّه والمشبَّه به، فهي ليست مجرَّد معادلة بين طرفين كما يقول البلاغيون[١]. فيأخذ عليهم أنَّ نظرتهم إلى الاستعارة

(١) ينظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٣٢٧.

محدودة بإطار معيَّن دون أن تكون انبجاسًا نفسيًا وتلقائيًا ينغرس في أحشاء النسيج الفني.

وأوَّل هذا الأمر واضحًا في التقسيمات والاختلاف فيها؛ إذ كان تفريق البلاغيين بين الاستعارة التصريحية والمكنية مضطربًا، وكل مناقشاتهم تتسم بالجدل الذهني التي فتت المشاعر التلقائية التي تولدها الصورة التعبيريَّة، فقد كان تصورهم للاستعارة أنها قائمة على أساس من التشبيه.

يأخذ الكاتب – أيضًا– على البلاغيين أن الاستعارة ليست مجرد استخلاص لصفات مشتركة بين طرفيها؛ لأنَّها قد تكون صورة لمشاعر المتكلم تجاه الأشياء. ويستند الكاتب إلى مقولة ريتشارد صاحب مبادئ النقد الأدبي عن الاستعارة في:" أنها الوسيلة العظمى التي يجمع الذهن بواسطتها في الشعر أشياء مختلفة لم توجد بينها علاقة من قبل، وذلك لأجل التأثير في المواقف والدوافع، وينجم هذا التأثير عن جمع هذه الأشياء، وعن العلاقات التي ينشئها الذهن."(١)

ثمَّ يلخِّص الكاتب غرض الاستعارة عند البلاغيين في أنها تقوم" بما يشبه الزركشة أو الزخرفة أو التحديد أوالاختصار أوالطرافة أو الإيضاح."(٢) فقد حرص البلاغيون فيها على صحة العبارة وقرب المعاني، وانكشاف المقصود منها.

كما يأخذ الكاتب على البلاغيين دراسة الاستعارة في ضوء عملية الادعاء، والأَوْلى من ذلك في رأيه أن نراعي في الاستعارة فكرة التداخل الفني، والبناء الخيالي الذي تمتزج فيه الأشياء ووتوحد عوالمها. ثمَّ يشير إلى إلحاح البلاغيين على فكرة التناسب في الاستعارة بين الطرفين، وهو يرى أن الاستعارة بناءٌ ديناميٌّ يجمع في داخله اتجاهات مختلفة، حيث يتداخل المستعار منه والمستعار له؛ ليخلق فيهما بناء جديد يتعدى حدود التشابه والتناسب، فالصورة في التركيب الاستعاري تتحول إلى كينونة خاصة تمثل انكشافا ثريًّا للوجود(٣).

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٣٣٨.

(٢) المرجع نفسه، صـ٣٣٩.

(٣) ينظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٣٤٦.

ويشير إلى أبيات كثيِّر المشهورة:

ولمَّا قَضَيْنَا من مِنَى كلّ حَاجَةٍ ومَسَّحَ بالأرْكانِ من هُوَ مَاسِحُ

قائلًا إلى أنَّ القارئ يجب أن يتلقى الصورة الاستعارية في هذه الأبيات وتحويلها إلى لوحة إما ساكنة أو متحركة، ويشير كذلك إلى وجوب عدم تجاهل الأحاسيس النفسيَّة في هذه الأبيات؛ لأنَّ الصورة الإيحائية تولد أحاسيس ثريَّة وتولد أطرافًا من المشاعر تتعدَّى حدود المعنى الإشاري المحدد للفظ.(١)

كما يعيب على البلاغيين حرصهم على التقنين الصارم للأداء الفني، فهم يحاولون عقلنة كل تركيب استعاري، والبحث عن أصل تشبيهي له، فالتشبيه هو الأصل والاستعارة هي فرعه، والحرص على تصور أصل تشبيهي في الاستعارة كان سببًا في جمود نظرتهم للاستعارة. ومنها وقع الجدال بين البلاغيين حول أنَّ الاستعارة ليست نقلًا للفظ، وإنما هي نقل للمعنى؛ لأنهم في تأويلاتهم للشواهد الاستعارية يميلون إلى تفسير منطقي يهتم بدلالات اللزوم والوهم والتقدير والتخييل، وهو ما دفع بتحليلات البلاغيين إلى منطقة التقنين العقلي المحض.

ويشير الكاتب إلى أنَّ تحليل البلاغيين للاستعارة يقوم على فكرة أنَّ الحقيقة هي الأصل والمجاز هو ما تفرَّع عنها، ويعيب عليهم غياب فكرة (الخيال- الشعور- العاطفة) وهي تشكِّل حقيقة فنيَّة تنافس فكرة الحقيقة الأولى التي هي الأصل عند البلاغيين، والبحث عن الحقيقة هو طابع البحث البلاغي للاستعارة، ومن هنا تكون الاستعارة بحثًا عن المعنى أو توضيحًا له أو مبالغة في نقل الحقيقة، ومن هنا تعد الحقيقة أصلا والمجاز فرعًا، وهذا نتاج سيطرة النظرة العقلانيَّة على نظرة البلاغيين.

كما أنه تداخلت المصطلحات والتعريفات من البلاغيين في ماهيَّة الاستعارة بما يمثِّل جدلًا فكريًّا منطقيًا، وهو ما دخل بالبلاغة إلى منطقة الصراع اللفظي الجدلي بعيدًا عن الذوق الفني، وهو مانتج عنه – أيضًا- تقسميات متعددة للاستعارة نحو: الأصلية والتبعية، والمجردة والمطلقة والمرشحة، وكلها تقسيمات

(١) ينظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٣٤٧.

تدل على رغبة في التحديد والتقنين أكثر من دلالاتها على فنية الأداء. فالكاتب يرى أنَّ نقاش البلاغيين لو اتجه نحو تحيل النصوص لكان أقوم بدلًا من التنظير.

ويؤكِّد (عيد) على أنَّ مفهوم الاستعارة تطور من مجرد النقل إلى التحسين والتزيين إلى مخاطبة المشاعر، وليس الأبصار، وهو ما منحها بعض الغموض الفني الذي يسعى إلى إثارة الانفعال؛ فقد تحولت إلى نشاط فكري ينظم التجربة عبر الخيال الذي يعيد تشكيل الواقع بجزيئاته التي تذوب في إطار جديد يحمل رؤية فنية خاصة للأشياء. فالاستعارة هي: الأم الأبدية للكلام وهي لا تنفصل عن البناء اللغوي –كما كان يرى أرسطو– بل إن لها علاقة عضوية مبثوثة في البناء اللغوي بجانب وظيفتها التجريديَّة في تجسيد ملكة الخيال. وهو من هذا المبدأ يذهب إلى تفضيل صور استعارية عند المحدثين خاصة إبراهيم ناجي، ومحمد الخفاجي، ومحمود حسن اسماعيل على أساس أنها تتفوق على الصور القديمة، وعلى أساس أنها لا تنطبق عليها قوانين البلاغيين.

ولعلَّ تفضيله للاستعارات التي جاء بها شعراء معاصرون كإبراهيم ناجي ومحمود حسن اسماعيل يشهد عليه بأكثر مما يشهد له؛ فالنصوص الحديثة تعبِّر عن ذهنيَّة تخالف تمامًا ذهنية القدماء، كما أنَّ ثقافته كناقد أو بلاغي معاصر تتعاطى مع النصوص القديمة من واقع مختلف، وأفق مغاير يدفعانه إلى القفز على حدود المادية أو الحسية التي وقف عندها القدماء إلى إدراك أبعاد نفسيَّة وجماليَّة أخرى. وهو ما جعله ينظر إلى الاستعارة بوصفها عنصرًا في بنية النسيج الفني.

فالاستعارة بناء يتداخل في تكوينه الحس والحدس والخيال، ولذلك يرفض الكاتب محاولة إخضاعها إلى قوالب عقلية، فالصورة المتخيلة تحمل في بنيتها مضمونًا نفسانيًا خاصًا لا يخضع إلا للشعور الباطني الذي يملك قدرة استبصار متميزة وصلبة ولها منطقها الخاص الذي يجاوز المنطق الذهني.[1]

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٤١٦.

وخلاصة رأيه: أن الاستعارة محاولة لاستكشاف العالم والكون والوجود، فلا يمكن حصرها في إطار التقنين يقول:" إن الصورة الشعرية تعتمد على عنصري الكثيف والتركيز بانسرابها عبر الوضوح العاري الأجرد إلى برزخ الخيال المتجاوز حدود الحقيقة الماديّة والمحسوسة. إلا أنَّ المشكلة كانت في سيطرة المنطقة النقدية في مفهوم الصورة وتقنينها وقسرها داخل أطر محددة."(١) وأرى في ذلك من الجور الكبير على البلاغيين؛ فقد كانوا بصدد التأسيس لمعياريَّة البلاغة، ولذلك كان تركيزهم منصبًا على فكرة الشاهد الذي يسهم في وضعهم للقاعدة، ولذلك كان من غير المنطقي أن يطلب من القدماء النظر إلى الاستعارة بوصفها" حالة تقمص وجداني حيث تنمحي المفارق وتتوحد المشابه."(٢)

ويختم حديثه لعلم البيان بالكناية ؛ إذ يرفض الدكتور رجاء عيد جعل البلاغيين قيمة الكناية تتلخَّص في إثبات الصفة بالإيماء إليها؛ لأن الكناية قد تكون أكثر من ذلك امتلاءً وحيويَّة؛ لأنَّ البلاغيين اتجهوا في الكناية اتجاهًا جامدًا يدور حول نماذج وراحوا يتسابقون في التصنيف والتمثيل.

فالكناية في رأيه لا تمثِّل قضيَّة فنيَّة ذات خطورة في التشكيل الفني، وما زالت،" ولكن الرغبة في تفتيت كل شيء والدوران حوله، ثمَّ التفنن فيما لا فنَّ فيه كان لابدَّ أن يشمل ما اصطلح عليه باسم الكناية"(٣) ويأخذ الكاتب على البلاغيين جدالهم حول تصنيف الكناية من الحقيقة والمجاز ليهمشوا المعنى من التعبير الكنائي؛ إذ كانت تحمل الأمرين معًا؛ لأنهم انشغلوا في جدالات منطقية.

كما يرى الكاتب أن التعبير الكنائي تتصل دلالته بالسياق العام داخل بناء القصيدة، فهو بمنزلة اللمحة الخاطفة التي يبصرها الشاعر في طريقه بغية تحقيق اتساع الرؤية، وتحويلها من الحدقة المبصرة إلى مساب اللمح الذكي.(٤)

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٤٢٠.

(٢) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، ٣٢٧.

(٣) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٤٢٢.

(٤) ينظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور،صـ٤٣٠.

ويأخذ الكاتب على البلاغيين أنَّ بحثهم للكناية دار في فلك المنطق والجدل والبحث وراء الإقناع المجرد، وكان أولى من ذلك النظر إلى جودة الأساليب القوليَّة وتحليل قيمة الأداء الفني بشكل شامل. فالصورة الكنائية ليست بناءً قائما بذاته، وإنما هو جزء من البناء اللغوي يتفاعل فيه ومعه وبه وله. وعيد الكاتب موقفه هذا مرارًا " قد تتداخل الإيحاءات الرامزة في العمل الفني جميعه، ويكون من العبث الوقوف باسترخاء عند كل بيت لنخوض في أحشائه لنقبض على دلالة جزئيَّة تكون هي الكناية."[1]وبعدها يورد أبياتاً لناجي:

أَيْنَ مِنْ عَيْني حَبِيبٌ سَاحِرٌ ... فِيْهِ عزٌ وَجَلَالٌ وَحَيَاءْ

وَاثِقُ الخُطْوَةِ يَمْشي مَلِكاً ... ظَالِمُ الحُسْنِ شَهِيٌّ الكِبْرِيَاءْ

أَيْنَ مِنّي مَجْلِسٌ أَنْتَ بِهِ ... فِتْنَةٌ تَمَّتْ سَنَاءٌ وَسَنَا

وَأَنَا حُبٌّ وَقَلْبٌ هَائِمٌ ... وَخَيَالٌ حَائِرٌ مِنْكَ دَنَا

يعلِّق عليها قائلا:" الأبيات تحتشد بصورة متمازجة، وتأتلق بعطاءات رامزة، وتتشكَّل لوحتها من ألوان متجانسة، ويتشابك في تكوينها اللغوي ما قد نسميه باسمه الباهت القديم، كناية عن نسبة" فيه عز وجلال وحياء" أو كناية عن صفة: واثق الخطوة- ظالم الحسن- شهي الكبرياء. ولكن الأبيات بعطائها المكتنز، تأنف من تلك المسميَّات، وتأبى ابتسار دلالتها، حتى لا تتقوقع داخل جزئيات شاحبة."[2] ولابدَّ إذن من تجاوز المنطق البلاغيّ للقدماء حتَّى يتجدَّد النظر البلاغي.

ونلاحظ من ذلك أنَّ نقد الكاتب تصور البلاغيين للكناية، كان فيه منطلقًا من أحكامه التي استمدها من نصوص الشعر الحديث؛ في كون الكناية تضيِّق عما تمنحه الأبيات من دلالات. وهو أمر طبيعي يفرضه تباين الزمان والمكان اللذين شكلا سياق النص الشعري في القديم والحديث وهو ما يكفي لجعل المفارقة الزمنية حاجزا قويًّا ضدَّ الكثير من مقولات الكاتب الذي تتسم بالحماس والتعميم والمبالغة.

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٤٣٦.

(٢) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٤٣٩-٤٤٠.

المبحث الثالث: تقييم آراء الدكتور رجاء عيد بين منطلقاته، وتطبيقه لفكرته

المطلب الأول: تقييم منطلقات الكاتب في فلسفته:

بداية نقول بأنَّ ما عمله الدكتور رجاء عيد يعدُّ قراءة طموحة للتراث البلاغي، أو أنَّ صاحبها أراد أن يعيد قراءة هذا التراث الطويل بعين الناقد الذي يحاول أن يعيد ترتيب قواعد هذا البناء؛ ليضفي عليه نظرة تجديديَّة تميط عنه لثام الجمود الذي استمرَّ قرونًا عديدة، وهي فكرة لا غبار عليها من حيث المبدأ، ولكن طريقة التناول فيها من التقصير لشيء الكثير، وأوَّل شيء يتداعى إلى الذهن بهذا الصدد هو عنوان الكتاب : فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، وهو عنوان ينطوي على ثلاثة ألفاظ دالَّة، وهي:

الفلسفة- التقنية- التطور:

فلفظ الفلسفة يدلُّ على النظر البلاغيّ الذي ينطلق وفقًا لنسق فكريّ معيَّن، ولفظ التطور يمثِّل لب فكرة الكاتب الذي لاحظ أن الأساليب الفنيَّة تتطور من عصر إلى آخر، ومن ثمَّ يجب أن لا يسيطر النظر البلاغي القديم على دراسات البلاغة في العصر الحديث.

لكن الغريب بين هذه الألفاظ هو لفظ التقنية؛ لأنَّ فكرة الكاتب التي يبني عليها كتابه هي رفض فكرة تقنين الأساليب البلاغيَّة؛ لأنها تخضع للذوق، والذوق متغيِّر من عصر إلى عصر، ومن كاتب إلى كاتب، ومن شاعر إلى شاعر ؛ لذلك يرفض خضوع البلاغة لقانون صارم لا يراعي خصوصيَّة الأجزاء التي تشكِّل الكل، الذي هو الظاهرة الأدبيَّة. ومن ثمَّ فكان الأولى أن يحل لفظ التقنين محل لفظ التقنية؛ لأنه يخدم الغرض الذي يقصده الكاتب.

ومن ناحية المنطلقات في مقدِّمة الكاتب، فالقارئ في حالة صدمة- كما قال الكاتب- فلماذا قرَّر الدكتور رجاء عيد بأنَّ البلاغة نشأت في غير أهلها؟

ولماذا ما توارثه وتناقلته الأجيال في علم البلاغة، جعل منها شيء ذا قداسة دون مراجعة؟ في تساؤل منه: هل يظل الحكم البلاغيّ الذي قيل في القرون الأولى للهجرة يظل هو الحكم نتوارث ذوقه ونتعبَّد تفسيره؟

ثمَّ يعلن الغاية من الكتاب وهي: محاولة لتفهُّم كثير من المشكلات التي أصابت البحث البلاغي ودفعت به إلى تقنين صارم، كما أنها تريد البعد عن النظرة المتجزأة للبيت والبيتين.(١)

ومما سبق يتَّضح أن الدكتور رجاء عيد كان واضحًا في رؤيته، وكان واضحاً اندفاعه في مقدمته؛ ليصل إلى ما يريد وهو: "مراجعة درس البلاغة الذي ألفناه في طريقته المريحة راحة رخيصة وهو يدور في حلقة صدئه تعتمد على السرديَّة المنطفئة لكتب البلاغيين القدماء وترداد أقوالهم وكأنها الكلمة الأخيرة والوحي الأخير، وراحت لذلك تكتسب بالتكرار والإعادة مسحة قداسة خادعة."(٢)

وهذا الأمر من أجل أن لا يلتحق بالمسترخين من العلماء الذي لا يسعون إلى التغيير مثله، وهذه " فرية لا تنم عن تنكر للحق وأهله فحسب، بل غرور وأنانية حري بكل منصف- فضلًا عن أن يكون عالماً باحثًا- أن لا يرضاهما لنفسه." (٣)

أمَّا من ناحية خروج البلاغة من غير أهلها، فهذا الأمر يثير الغرابة، فجميع علماء العربيَّة هم أهل للبلاغة، وإذا تأثر البلاغيون بغيرهم فهذا " من أسباب نموها ورقيها، وإنَّ الذين نشأت فيهم هذا البلاغة كانوا أحق بها وأهلها."(٤)

والتعبُّد الذي يتَّهمه الدكتور رجاء لمتلقي الدرس البلاغي القديم، يوجب سؤالاً يوجَّه للدكتور رجاء عيد، هل ألفة الشيء تستحق استباحته بهذا التعالي غير المبرر؟

فما قيمة العلم الذي اجتهد فيه القدماء، وأضافوا، وحللوا وزادوا، من أجل خدمة القرآن الكريم، واللغة العربية، فالذي ألفه الدكتور رجاء عيد، قد لا يألفه

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٨.

(٢) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، صـ٨.

(٣) البلاغة المفترى عليها بين الأصلة والتبعيَّة، الدكتور/ فضل حسن عبَّاس، دار الفرقان للنشر والتوزيع،الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، صـ٢٦٧.

(٤) المرجع نفسه، صـ٢٦٧.

غيره، وإلى الآن يبحث في طيَّاته عن مغيِّبات ثمينة، تثري الدرس البلاغي وغيره، حتى الشروحات التي اتهموها بالجمود، فيها من الكنز الوافر الكثير، الذي يجعلنا وأجيالنا نبحث في مكنوزه ودرره دون ملل أو كلل. فالذي اعتاد القوالب الجاهزة في عصرنا، وكثرة العلوم وتداخلها، لا يقيس نفسه ولا عصره بعصر السابقين الذين سعوا وجاهدوا، وناقشوا، فهو ليس عبثًا – كما يقال– وإنما هو بنيان يتجسَّد يأخذ اللاحق فيه من السابق ويضيف عليه، ولا يكرر، والدليل أنَّ الجميع اتفقَّ على اكتمال البلاغة ووضوح معالمها على يد كل من الزمخشري، وعبدالقاهر الجرجاني.

فكلٌّ من جاء بعدهم أَضاف ولم يتعبَّد – كما قال– حتى عصرنا الحالي، وعلم البلاغة كأي علم ينتابه الفتور، لكن لا يحق لنا أن نستبيحه ودراسيه بهذا التعنُّت. " فالتجديد ليس إلَّا متابعة الحياة من حيث عاقتها غفوة اجتماعيَّة، ومواصلة النَّماء من حيث وقَّفته عوامل جمود، وليس يستبين المجدد طريقه ولا يدري من أين يبدأ جهاده، إلا إذا استجلى تاريخ ما يعاني تنميته، وعرفَ كيف يبدأ حياته؟ ومتى، ولمَ وقف به الجمود؟ فإذا تبيَّن المجدِّد طريق غدِه بتجارب أمسه عرف ما يدع وما يأخذ. وإذ ذاك ينفي ويثبت عن بصيرة، ويبتر مظاهر الجمود في هدي وثقة... فأصدق عمل المجدِّد أن يعرف أن وراءه تاريخًا يستطيع أن يتعلَّم منه أشياء كثيرة."[١]

إضافة إلى أنَّ معياريَّة البلاغة لا تنتقص من قيمتها، ولا تقلِّل من شأنها، فقد لجأ البلاغيون المتأخرون إلى ذلك؛ لـ" غرض تنقيب علوم البلاغة من المبتدئين، وإعانتهم في تحصيل علومها، بعد أن غاب التذوق الفني عن كثير منهم؛ بسبب غياب الممارسة وضعف الفطرة، وما تبع ذلك من فساد في الملكات الأدبية."[٢] فهي بذلك تساعد على الحفاظ على لغتنا العربيَّة ، ومن ثم الحفاظ على القرآن الكريم.

---

(١) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، دار المعرفة– القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦١م، صـ١٤٣.

(٢) دور البلاغة في دراسة النص الأدبي وتكوينه، سعيد بن طيب بن سحيم المطرفي، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى ١٤١٧هـ، صـ١٦٧.

المطلب الثاني: تقييم تطبيق فكرة الكاتب في فلسفته:

تكاد تكون فكرة الكتاب الأساسية تتلخص في رفض النظرة الجزئية للأساليب الفنيَّة؛ والتعويل على نظرة كليَّة للعمل الفني تراعي فيها الظروف الاجتماعية والنفسية التي تختلف من عصر إلى آخر، ولذا فإنَّ تقنين البلاغة بقوانين صارمة يجب أن تتحكم في كل العصور أمر يخالف العقل. والكاتب محقّ في هذا المبدأ لكن العيب في ذلك لا يرجع إلى البلاغيين القدماء أنفسهم؛ فقد وضعوا قواعدهم في سياق عصرهم، ولم يلزموا من جاء بعدهم بالوقوف عند حدود إسهامهم.

لكن الكاتب في نقده وقوف البلاغة القديمة عن المثال المفرد دون النظر إلى النص كاملًا يبدو غير واقعي؛ إذ يطلب من القدماء الخروج عن سياق زمنهم، وما نتج عنه من تصورات فقد كان القدماء يستمدون من حياتهم وأنساقها الفكرية في تصوراتهم للأدب ونماذجه.

وإذا كانت الأحكام النقدية أسبق في الوجود على معايير البلاغة؛ فلأنَّ هذه المعايير مستمدة من الأحكام النقدية، ومتصلة بها، ومن ثم كانت سيادة النظرة الجزئية إلى البيت المفرد أو إلى الجملة نتاجًا طبيعيًا لطبيعة النظر العقلي والفكري في تلك المرحلة، يقول إحسان عباس:" إن الخضوع للعرف العام في الخلق الفردي والاجتماعي وفي محاسن الأشياء وعيوبها هو الحكم الذي كان يفيء إليه أولئك النقاد العلماء في دراستهم للشعر. وكانوا ما يزالون يتساءلون عن أمدح بيت وأغزل بيت وأهجى بيت."(١)

وإذا كانت البيئة تعتمد على الحفظ، وتمثِّل الذاكرة فيها لُبّ الموقف النقدي فقد كان طبيعيًّا في بيئة تعتمد على الحفظ أن تجعل البيت المفرد هو لب الحكم النقدي والبلاغي، ولذلك كان من المسلَّم به أن يتجه اهتمام البلاغيين إلى الألفاظ؛ فوضعوا شروطاً لفصاحتها تتناسب مع عصرهم ومقاييسه الفنية.

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، الدكتور: إحسان عباس، دار الشروق، عمان – الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، صـ٣٤.

فوقوف البلاغة عند حدود الجملة أو البيت الشعري هو ضرورة يحتِّمها المنهج" فالدارس في ممارسته العمليَّة لمفهوماته التنظيريَّه يلجأ- بالضرورة- إلى اختيار مفاهيمه من خلال اجتزاء الشاهد، وهذا أمر مسلَّم به على مستوى الخطاب البلاغي القديم والخطاب البلاغي الجديد، فعلى الرغم من كثرة ما ترجم من الأسلوبيَّات والبنيويات، لم نصادف منها ما يتعامل مع النصوص الكاملة تحليلًا وتفسيرًا، وإنما الاجتزاء سمة تميِّز هذه الدراسات." (١)

أمَّا عن نقد النزعة المنطقيَّة في الدرس البلاغي يلاحظ الكاتب أن نمو النشاط الفكري دفع الأدباء واللغويين إلى البصر بأساليب الكلام وطرائق الحجاج، ومن ثمَّ اختلطت المباحث النحويَّة واللغويَّة والبلاغيَّة بمباحث المنطق، وهو ما نجم عنه تَسربُ الطبائع المنطقيَّة إلى بناء البلاغة بواسطة الأصوليين والمتكلمين والمفسرين الذين جادلوا وناقشوا مضمون النص ، منصرفين عن بلاغته إلى ما فيه من قياس منطقي وجدل ومقدمات وحدود وأسوار .

فالملاحظ أنَّ الأثر المنطقي يعد مكوِّنًا من مكونات التفكير اللغوي بوجه عام، والبحث في قضيَّة جدليَّة يتحتَّم على من جاء بعدها أن يجاريها، ويناقشها؛ ليصل إلى الإقناع للمتلقِّي، فقد تأثر التفكير اللغوي بتفريق أفلاطون بين ما يقال وكيفية قوله، وهذه الثنائية" التي انتقلت إلى الفلسفة الإسلاميَّة في شأن الموجود وتقومه بالصورة والمادة تردد صداها بعدئذ في البلاغة. فكانت قضية اللفظ والمعنى من أول قضاياها."(٢)

وهو ما يعني أن تأثر التأليف اللغوي سواء في النحو أو البلاغة بالأثر الفلسفي أمرٌ مُقررٌ ولا يعدُّ عيبًا، لكن مبالغة الكاتب في محاولة فرض رؤيته دفعته إلى ذلك الموقف.

---

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى، الدكتور: محمد عبدالمطلب، دار نوبار- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، صـ٢٠.

(٢) التركيب اللغوي للأدب، بحث في فلسفة اللغة والاستطيقيا ، الدكتور/ لطفي عبدالبديع، دار المريخ الرياض، ١٤٠٩هـ١٩٨٩م، صـ١١.

وإذا كان تدوين البلاغة قد تأخر إلى ما بعد تدوين اللغة والأدب، وكان اللغة والأدب قد تأثَّرا بالفلسفة فلا غرو أن تتأثر البلاغة كذلك بالفلسفة التي تشكل عنصرًا بالغ الأهمية في صلب الفن عمومًا، ومن هنا كان ظهور مصطلح فلسفة الفن مرادفًا لمصطلح الجمالية(١)؛ ليدل على تداخل الفن والفلسفة في بنية العلوم العربية بشكل واضح.

ثالثًا: بحث الكاتب عن رؤية جديدة في مباحث علوم البلاغة، هذا لا يعدُّ خطأ، ولكن الخطأ هو الجمل التي يقحمها الكاتب في مناقشته آراء الآخرين، والتقليل منها، وهذا يعدُّ أكبر خطأ، فعلى العالم المتأدب بأخلاقيات العلم، وكيفيَّة تلقيِّنه، أن يحترم سابقه، ولا يقلل من توجهاته، وتفكيره، ولا يهاجمهم،كما نرى عند الدكتور رجاء عيد، فقد قلَّل من شأن البلاغيين وخصوصًا عبدالقاهر الجرجاني، وابن الأثير.

والذي يؤخذ على الكاتب – أيضًا- أنَّه يخلط بين الأحكام النقديَّة والأحكام البلاغيَّة بشكل يقلل من قيمة كتابه أمام النظر الفاحص خاصَّة، أنه ينتقد تفسيرات القدماء لنصوص شعرية قديمة ويضع مكانها أمرين غير صالحين: أولهما: نصوص شعريَّة جديدة.

ثانيهما: تفسيرات ذوقية تأويلية ذاتية صدرت عنه لنصوص الشعر القديم والحديث.

وحقا إن النظر البلاغي في حاجة إلى تطوير وتجديد، لكن شريطة أن يكون ذلك صادرًا عن وحدة في المعيار واتحاد في الممارسة النقدية، وألا نحتكم في نقدنا للتصورات البلاغية عند القدماء إلى سياقات تغاير سياق صياغتهم لهذه الآراء والتصورات. كما نرى في دعوته إلى نظرية عصريَّة للاستعارة.

فهذا أمر منفصل تمامًا عن تصورات القدماء ولو أنه قدَّم كتابه بما فيه من تصورات في سياق الدعوة إلى تجديد النظر البلاغي الذي يدور في فلك الذوق

(١) المناحي الفلسفيَّة عند الجاحظ، الدكتور/ علي بو ملحم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، صـ١٨٨.

بعيدًا عن الفلسفة وروح التقنين، لكان عمله أشد قبولًا من السياق الـــذي قدَّمـــه ووضعه مقرونًا بالنقد الواضح للتصورات البلاغية القديمة التي لم تكن إلا تعبيرًا عن عقول أصحابها، ولم تكن إلا نتاجًا لما أنتجته قناعاتهم فـــي ســـياق مرحلـــة زمنية مبكرة من عمر التدوين المنهجي للبلاغة العربية.

الخـــاتـــــمـــة:

بعد أن وفقني الله في عرض هذا البحث اليسير الذي عرضت فيـــه لجهـــد عالم من علماء التجديد في عصرنا الحديث، الذي حاول عبـــر نظرتـــه وقراءتـــه لجهود القدماء، أن يصل إلى فكرته الأساس وهي الرؤية الشموليَّة للعمل الفني، وربطها بالحالة النفسيَّة والشعوريَّة للمبدع، وخلصت إلى بعض النتائج، منها:

-إنَّ جهود البلاغيين القدامى جهود عظيمة، في خلق منهج بلاغي مميِّـــز، يتلاءم مع معطيات عصرهم، وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها.

-محاولة الدكتور رجاء عيد في التجديد البلاغي قامت على قراءة القـــديم، لكن رفضه لأغلب ما قيل، وردَّه ونعته بالجفاف والجمود، جعل قراءته للقديم فيها شيء من التحيُّز للفكر المعاصر.

-انبهار الدكتور رجاء عيد بالفكرة الشموليَّة، جعله يركِّز عليهـــا، وكأنهـــا المرتكز الرئيس الذي يدور عليه تذوق وتحليل البلاغيين، ولعلَّ تأثره بالتجـــارب الغربيَّة كان عائقًا له في السير إلى تطوير البلاغة.

-التجديد في علم البلاغة ليس مناطه إقصاء القديم، والتقليل مـــن جهـــود دارسيه، فقط ليتلاءم مع دراسة الحالة النفسيَّة والشعوريَّة لصاحب الكلام.

-رؤية الدكتور رجاء عيد تتفق مع نظرة أغلب المجددين المعاصرين معه. هذا كان يخدم هدفه، وهو الرؤية الشموليَّة التكامليَّة للنص الأدبي.

-إنَّ أغلب ما ذهب إليه الدكتور رجاء عيد كان مركّزًا على قصور البلاغـــة وضعفها عن الإحاطة بمتطلبات العصر. وهذا ما نراه في تطبيق الـــدكتور رجـــاء عيد على نماذج من الشعر الحديث.

-تطبيق الدكتور رجاء عيد كان خارج تمامًا عن مراده؛ وهو الفلسفة، فلو جعل هدف كتابه البحث عن الجماليَّات النفسيَّة في القصيدة مـــن ناحيـــة الـــذوق التأويلي لكان أفضل.

-فكرة التقنين الذي يرفضها الكاتب، نراه يتخَّط فيها ويطبِّقها بشكل واضح ويريد أن يجعلها معياريَّة – أيضًا- في معالجة النص الشعري.

-التسليم بتأثر القدماء بالمنطق والفلسفة عند أرسطو، وجعله سببًا في انغلاق الفكر العربي، فيه شيء من الظلم لجهود السابقين التي كانت غايتهم خدمة اللغة العربيَّة من الفساد، وإثبات إعجاز القرآن الكريم.

-القدماء وإن قالوا أحكامهم البلاغيَّة، فهم لم يلزموا بها من بعدهم، فالبلاغة تبحث عن الجمال والذوق، ويستطيع من أتى بعدهم أن يأخذ بما قالوه أو يعرض عنه، ويأتي بشيء جديد؛ وهو يؤكِّد صحَّة ما ذهب إليه.

-الجدال في العلم ليس عيبًا، وخصوصًا العقلي؛ إذ إنَّ كل عالم يكون حديثه عن دراية ورؤية عميقة، وليس عبثًا.

قائمة المصادر والمراجع

- الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، عبَّاس أرحيلة، مطبعة النَّجاح الجديدة- الدار البيضاء، ١٩٩٩م.
- أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيَّة، الدكتور/ صبَّاح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، لدكتور/ محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب- الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠١٢م.
- البلاغة العربية قراءة أخرى، الدكتور: محمد عبد المطلب، دار نوبار- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- البلاغة المفترى عليها بين الأصلة والتبعيَّة، الدكتور/ فضل حسن عبَّاس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، الدكتور: إحسان عباس، دار الشروق، عمان – الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
- التركيب اللغوي للأدب، بحث في فلسفة اللغة والاستطيقيا ، الدكتور/ لطفي عبدالبديع، دار المريخ الرياض، ١٤٠٩هـ١٩٨٩م.
- التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل، محمود أحمد نحلة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٩م.
- التصوير البياني، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة،القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- خصائص التراكيب، دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، الدكتور/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، د/ت.
- دلائل الإعجاز، الشيخ الإمام/ عبدالقاهر بين عبدالرحمن الجرجاني النحوي، قرأه وعلق عليه/ محمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، مطبعة المدني- مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م-١٤١٣هـ
- دور البلاغة في دراسة النص الأدبي وتكوينه، سعيد بن طيب بن سحيم المطرفي، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى ١٤١٧هـ.

- سر الفصاحة، للأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تصنيف أبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهيل العسكريّ، تحقيق: علي محمَّد البجاوي ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيَّة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.
- عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ ، تحقيق: محمد سلام زغلول، منشأة المعارف، الاسكندرية، الطبعة الثالثة.
- الغارة الهيلينيَّة والبيان العربي، الدكتور: عبَّاس أرحيلة، كنوز المعرفة، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م- ١٤٣٦هـ.
- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، الدكتور/ رجاء عيد، منشأة المعارف- الاسكندرية، الطبعة الثانية، د/ت.
- في البلاغة العربيَّة والأسلوبيَّات اللسانية، آفاق جديدة، الدكتور/ سعد عبدالعزيز مصلوح، جامعة الكويت، مجلس النشر العملي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- مراجعات في أصول الدرس البلاغي، الدكتور/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠١٦م.
- المناحي الفلسفيَّة عند الجاحظ، الدكتور/ علي بو ملحم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، دار المعرفة- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦١م.
- نظرية النظم عند الشيخ عبدالقاهر الجرجاني، الدكتورة/ نجاح بنت أحمد الظهار، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- المجلات العلميَّة: - القاعدة والذوق في بلاغة السكاكي، الدكتور/ يوسف رزقه، مجلَّة الجامعة الإسلاميَّة، المجلَّد السابع، العدد الأول، يناير-١٩٩٩م.
- قراءة في دعوات تجديد البلاغة، الدكتور/ الشارف لطروش، مجلَّة حوليات التراث، العدد١٦. ٢٠١٦م

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٤٢١٥
٢-	Abstract	٤٢١٧
٣-	المقدّمة	٤٢١٨
٤-	التمهيد	٤٢٢٠
٥-	الغاية من التجديد في البلاغة العربيةً:	٤٢٢٠
٦-	المبحث الأول: فلسفة البلاغة بين منطلقات الكاتب في البحث البلاغيّ ومفهوم البلاغة.	٤٢٢٣
٧-	المطلب الأول: منطلقات الكاتب وأهدافه:	٤٢٢٣
٨-	المطلب الثاني: مفهوم البلاغة بين الاضطراب والتداخل:	٤٢٢٤
٩-	المبحث الثاني: رؤية جديدة في مقررات قديمة.	٤٢٣٢
١٠-	المطلب الأوّل: اللفظ والمعنى وعلاقتهما بالسياق.	٤٢٣٢
١١-	المطلب الثاني: مباحث علم المعاني:	٤٢٣٦
١٢-	المطلب الثالث: مباحث علم البيان:	٤٢٤٧
١٣-	المبحث الثالث: تقييم آراء الدكتور رجاء عيد بين منطلقاته، وتطبيقه لفكرته	٤٢٥٥
١٤-	المطلب الأول: تقييم منطلقات الكاتب في فلسفته:	٤٢٥٥
١٥-	المطلب الثاني: تقييم تطبيق فكرة الكاتب في فلسفته:	٤٢٥٨
١٦-	الخاتمة:	٤٢٦٢
١٧-	قائمة المصادر والمراجع	٤٢٦٤
١٨-	فهرس الموضوعات	٤٢٦٦